وزارة الثقافة

في سبيل الشرف

جميل البحري

مركز جمع وحفظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

في سبيل الشَّرف

تأليف: جميل حبيب البحري

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٢٦

عن مطبعة الزّهرة - حيفا

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: جميل حبيب البحري
اسم الكتاب: في سبيل الشَّرف
الطبعة الأولى: ١٩٢٦ عن مطبعة الزّهرة - حيفا

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: حنين خالد عِناية
الصف والتنضيد: شادية الخطيب
تصميم الغلاف: فاطمة حسين

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

في سبيل الشَّرف

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

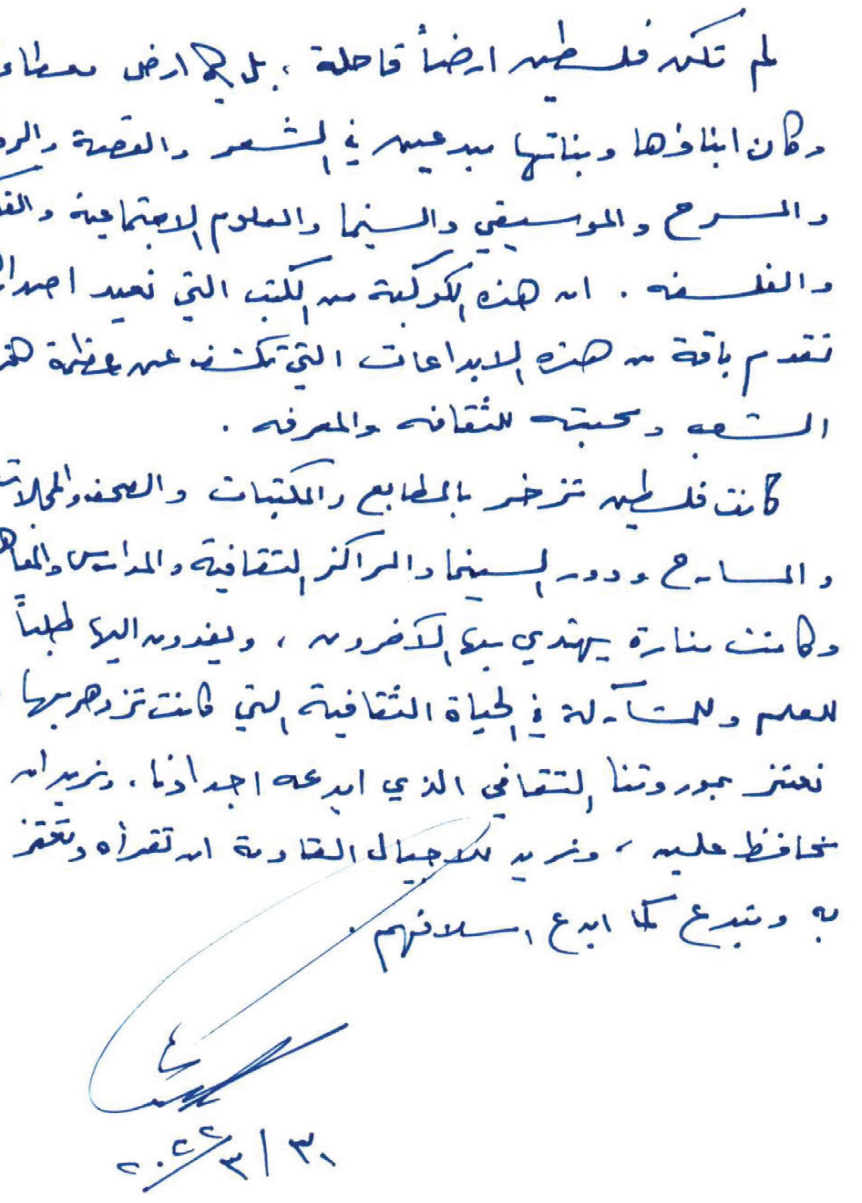
لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة ، بل كانت ارض معطاءة
وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة . انه لمن الكرامة ان الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عمق وغنى هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة .

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون ، ويفدون اليها لطلب
العلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها .
نعتز جميعنا بتراثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا . ونريد ان
نحافظ عليه ، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم .

٢٠٠٥/٢/٣٠

المقدِّمة

•••

روايـة «في سـبيل الـشرف» هـي شـقيقة ثالثـة لروايتـي «قاتـل أخيـه» و «سـجين القـصر» وحلقـة سادسـة أضمهـا إلى حلقـات الروايـة التمثيليـة التـي أخـذت عـلى نفـسي أمـر متابعـة نشرهـا خدمـة للتمثيـل الأدبي، ولعـلي وطيـد أنهـا تلاقـي مـا لاقتـه شـقيقاتها مـن الإقبـال فتمثّـل عـلى المسـارح العربيـة عامـة وتنقـد طبعتهـا الأولى وتطبـع ثانيـة نظيرهـما.

أمـا الحادثـة فهـي روايـة عـلى النمـط القصـصي كنـت قرأتهـا لخمـس سـنوات خلـت وقـد أعجبنـي موضوعهـا وراقنـي مغزاهـا فنقلتهـا باختصـار إلى العربيـة ونشرتهـا في مجلـة «المـسرة « الغـراء عـلى أمـل الرجـوع إليهـا يومـا وإلباسـها حلـة تمثيليـة تليـق بمسـارح التمثيـل الأدبي، ولكـن مهـام مجلتـي «الزهـرة» والمكتبـة والمطبعـة ملكـت عـلي سـاعات فراغي وشـغلتني طـوال السـنين السـالفة عنهـا، عـلى أنـه لم يعـد لي منـاص أخـيرا مـن تلبيـة رغبـات الأدبـاء الكثـيرة الذيـن يطلبـون منـي بإلحـاح روايـات جديـدة تتمـشى بروحهـا وأدبهـا ومغازيهـا عـلى طريقـة روايتـي السـابقتين، فأخـذت موضـوع «في سـبيل الـشرف» وقسـمته إلى فصـول خمسـة زائـدا فيـه ومنقصـا مـا رأيـت ضرورة في زيادتـه وإنقاصـه مـع المحافظـة عـلى المغـزى البديـع الـذي تـدور حولـه الروايـة وجعلتـه خلـوا مـن الأدوار النسـائية شـأني في كل روايـاتي حتـى أسـهل عـلى الأدبـاء والمـدارس والجمعيـات تمثيلهـا مـن دون مـا عنـاء في التفتيـش عـلى مـن يصلـح لتمثيـل دور سـيدة أو فتـاة.

هـذه هـي الروايـة التـي أزفهـا اليـوم إلى عـالم التمثيـل آمـلا أن تـروق في عيـون الأدبـاء عامـة فتلاقـي منهـم إقبـالا ينشـطني إلا الاشـتغال بغيرهـا واللـه ولي التوفيـق..

شهر آب سنة ١٩٢٦.

جميل

موضوع الرِّواية

•••

الكونت جيل دي فيرفوكون أحد القواد البارزين في الحملة الصليبية الرابعة، رجع بغتة إلى بلاده فرنسا بعد أن كان معلنا عزمه على البقاء في الأراضي المقدسة مجاهدا، وقابل جلالة الملك فيليب ليوقفه على أحوال الصليبيين وكان ولده راعول برفقته. وبينما هو في الحديث مع جلالته إذ دخل فارسان صليبيان واتهما جيل بخيانة عظمى وبتسليمه أحد أبطال الصليبية المدعو سيجوفروا إلى أعدائه وأدليا ببراهين أثبتت تهمتهما وأضعفت موقف جيل تجاههما، فلم يقو على رد التهمة وحوكم أمام مجلس عظماء المملكة وحُكم عليه بالسجن وبإسقاطه من حقوق المدنية.

أما ولده راعول الذي شهد إهانة أبيه وخسارة شرف أسرته فإنه لم يصدق بالجريمة التي رمي والده بها خصوصا وقد لاحظ أثناء المحاكمة أن هنالك سرا يسكت والده عن إفشائه فضلا عن تصريحاته الكثيرة ببراءته من التهمة براءة الذئب من دم يوسف، فذهب إلى والده في السجن ورجا منه أن يفضي إليه بذات نفسه، وبعد الإلحاح الشديد أخبره والده أنه لم يخن سيجوفروا وأن التهمة ألصقت به ظلما ولكنه رضخ لها تكفيرا عن ذنب ارتكبه وإتماما لنبوة كاهن الله في الأرض المقدسة القائلة بأنه سيكفر عن ذنوبه بفقد شرفه.

فلم يقو راعول على احتمال الظلم اللاحق بأبيه وآلى على نفسه ألا يقعد عن السعي وراء كشف سر التهمة واسترجاع شرف أسرته، فقصد

إلى الأراضي المقدسة مع ثلاثة رفاق ولم تطأ رجلاه أرض فلسطين حتى فوجئ بحادث أوقعه مع رفاقه في أسر الأعداء وزُجّ في أعماق السجون.

وكاد راعول يقنط العيش ويبأس من إتمام المهمة التي ترك بلاده لأجلها لولا أن أحد الرفاق جاء يوما خفية وأخبره أن كاهنا يريد أن يراه في سجنه وأن لا منفذ له إليه إلا برشوة السجان فحذره راعول شر العاقبة فلم يرعو الرفيق وتمكّن من إغراء السجان وأدخل الكاهن إلى السجن.

على أن السجان لم يكن قبوله بإدخال الكاهن إلا طمعا بالظهور في خدمته مظهر الخادم الأمين، فأسرع حالا إلى سيده وأخبره بالأمر فجاء هذا صاخبا غاضبا وهم بقتل راعول لولا أن الكاهن انتهره صارخا به وقائلا إلى الوراء أيها الخائن سيجوفروا.

فذهل الأمير بادئ ذي بدء للصدمة ولكنه أقر بعد ذلك أنه هو بالحقيقة سيجوفروا الذي رمى الكونت جيل دي فيرفوكون بخيانته، وأنه هو نفسه الخائن الحقيقي وقد اتفق مع الأعداء واختفى بينهم.

ولا تسل عن فرح راعول أمام هذه البشرى وأخذ من سيجوفروا صكا يقر فيه بحقيقة الواقع ويعلم براءة الكونت جيل مما اتهم به وحمله مع رفاقه إلى بلاده وسلمه إلى الملك الذي قصد حالا إلى سجن جيل وجمعه إلى ولده بعد أو أوقفه على الحقيقة الراهنة التي ظهرت على يد والده راعول وأعاد إليه شرفه وما خسره وأعلن براءته أمام مجلس عظماء المملكة وسمي راعول فارس الملك.

وهكـذا فـإن راعـول الابـن الأبـر لم يطـق صـبرا عـلى الامتهـان وذهـب إلى البـلاد النائيـة وتمكّـن مـن اسـترجاع الـشرف الـذي يسـتميت كل شريـف في سـبيل المحافظـة عليـه.

أسماء الممثّلين

•••

فيليـب	ملك فرنسا
جيـل	كونت دي فيرفوكون
راعـول	ابنه
لاندري	
ريمـون	فارسـان من فرسان الصليبيين
جاك	
أدمـون	رفاق راعول
نيفار	
سجان	
حاجب الملك	
كاهن	
الأمير خالد	
فريد أو سيجوفروا	
سعيد	
زيد	
عمر	

الفصل الأوَّل

يمثّل المسرح غرفة في قصر ملك فرنسا

•••

المشهد الأول

بعد أن يرفع الستار ببضع ثوان يدخل جيل وراعول ووراءهما حاجب القصر

الحاجب: هذا هو المكان المعد لاستقبالكما أيها السدان الكريمان فانتظرا فيه ريثما يوافيكما جلالة مولاي الملك فإني ذاهب لإخبار جلالته بقدومكما (يخرج).

المشهد الثاني

جيل راعول

جيل: هذا هو بيت الأمة، هذا هو مقصد أبناء فرنسا ونقطة دائرتهم في ذهابهم وإيابهم وفي صلواتهم وأدعيتهم، هذا هو قصر مليكهم، ولا أحب إلى قلوبهم ولا ألذ على أفواههم من ترديد اسم هذا الملك المفدى والدعاء له بطول العمر وبالعز والنصر. وها إني بعد طول الغياب وبعد مضي سنوات طويلة قضيتها مجاهدا في الأراضي المقدسة أعود إلى وطني المحبوب وأول فرض أقوم به هو الخفوف إلى هذا القصر لأجدد عواطف الإخلاص والعبودية بين يدي جلالة ولي النعم ساكنه، وقد رغبت يا بني في أن تكون رفيقي في شرف مقابلة جلالته

لأنـك رجـل الغـد وارث اسـم دي فيرفوكـون وعليـك وعـلى أمثالـك اعتـماد الوطـن، فمـن الـضروري والحالـة هـذه أن تتمـرن منـذ اليـوم عـلى مقابلـة الملـوك.

راعـول: أشـكر لـك يـا والـدي عطفـك، فهـي نعمـة تزيدهـا عـلى نعمـك الكثـيرة التـي لا تـزال تتعهـدني بهـا، وقـد طالمـا منيـت بدمـي أن أقبـل أنامـل جلالتـه وأن أدعـو لـه عـن قـرب بطـول العمـر والنـصر، وهـا إنـك تنيلنـي أمنيـة نفـسي.

جيـل: بـورك فيـك مـن ابـن بـار ووطنـي مخلـص يرفـع رأس أبيـه. وإني لأوصيـك يـا بنـي أن تكـون لمليـكك العبـد المطيـع ولبـلادك الرجـل العامـل النافـع، ولوطنـك الابـن الأمـين المخلـص، الـذاب عـن حياضـه بمالـه وروحـه، وبـكل مـا يدخـره مـن وسـع وقـوة، هـي وصيـة أبيـك إليـك، بـل أمانتـه في هـذه الحيـاة الدنيـا احفظهـا يـا بنـي واحتفـظ بهـا، واجعلهـا مرمـى بـصرك ومطمـح عملـك، وتذكرهـا كل يـوم في صبوحـك وغبوقـك.. واعلـم أن لا حـق للإنسـان عـلى نفسـه مـا دام وطنـه وملكـه في حاجـة إليـه.. (تُسـمع حركـة ويلتفتـان) هـا جلالـة الملـك قـد أقبـل علينـا بطلعتـه البهيـة.

المشهد الثالث

جيل. راعـول. الملك (يدخل محاطا بالحرس)

الحاجب: جلالة الملك.

الملك (ببشاشـة): أنت هنا يا جيل؟

جيـل: نعـم يـا مـولاي. وتـراني أسـعد النـاس حظـا بـشرف المثـول بـين يـدي جلالـة مـولاي وبتجديـد ميثـاق الإخـلاص والطاعـة لمليـكي المفـدى.

الملـك: أهـلا بـك يـا بطـلا أمينـا. فـإني لأفاخـر بـك أينـما حلـت ركابي وقـد طالمـا ذكرتـك في حروبـاتي الأخـيرة، وطالمـا رددت ذكـرى شـجاعتك وإخلاصـك ومحبتـك لمليـكك وبـلادك. (يلتفـت إلى الحاجـب ويقـول) أريـد أن أخلـو بالكونـت ولا أسـمح لأحـد أيـا كان أن يدخـل عـليّ. اذهـب واعمـل بمـا أمـرت. (يخـرج الحاجـب ويشـير الملـك إلى الحـرس فيبتعـدون)

المشهد الرابع

الملك.جيل.راعول

الملـك (مخاطبـا جيـل): هـل يمكنـك يـا جيـل أن تحدثنـي عـن فلسـطين وعـن حالـة رجالنـا الصليبيـين فيهـا؟

جيـل: إن معنويـة رجالنـا المحاربـين قويـة جـدا يـا مـولاي، وأملهـم باللـه عظيـم أنهـم واصلـون إلى نهايـة مرضيـة بمـا يحرزونـه مـن الانتصـارات المتتاليـة. إنمـا لا ننكـر يـا مـولاي عـلى الأعـداء شـجاعتهم وبسـالتهم.. فهـم

لا يهابـون المـوت ولا يرتـدّون مهـما قـل عديدهـم أمـام أبطالنـا البواسـل فضـلا عـن الغـزوات الفجائيـة والحمـلات غـير المنتظـرة وغـير المنظمـة التـي تـكاد تحـار لهـا عقـول رجالنـا، ومـع كل هـذا فالنـصر حليفنـا بعـون اللـه خصوصـا إذا واصلنـا الجيـوش بالإمـداد.

الملـك: ومـا السـبب في عدتـك إلينـا يـا جيـل وتـركك الجهـاد المقـدس في فلسـطين؟

جيـل: هـي فكـرة الوطـن المحبـوب التـي تصحـب الإنسـان أينـما ذهـب هابـت بي إلى هـذه الديـار فأسرعـت والشـوق منـي يلهـب الحشـا فضـلا عـن مـولى شـاقتني النفـس إلى عطفـه الأبـوي وأصدقـاء هـم دائمـا نصـب العيـون.

الملـك: ولكـن لم يكـن للوطـن في قلبـك المـكان الـذي كان لفلسـطين وقـد أممتهـا لتجاهـد إلى جانـب إخوانـك الأبطـال ولتعمـل معهـم عـلى تخليـص قـبر المسـيح ومهـده مـن أيـدي الأعـداء، فأنسـتك مهمتـك المقدسـة مليـكك وبـلادك والأهـل والأصدقـاء هـذا ناهيـك عـن مقامـك الرفيـع وقـد كنـت هنـاك نظـير ملـك يحترمـك الجميـع ويهـاب جانبـك الكبـير والصغـير.

جيـل: جنـدي بسـيط في بـلادي وإلى جانـب مليـكي لأحـب إليَّ مـن ملـك عريـض الجـاه في ديـار الغربـة... بـلادي بـلاد الحريـة والعيـش الهنـيء أتنشـق هواءهـا الليـل بمـلء رئتـي.. أمـا تلـك البـلاد فإنهـا عـلى رغـم مـا فيهـا مـن التـذكارات المؤثـرة، عـلى رغـم مقامهـا الدينـي الرفيـع.. فهـي ومـا يجـري فيهـا أبعـد إليّ مـن أحقـر وأصغـر قريـة مـن قـرى بـلادي.

الملـك (يلتفـت إلى راعـول): هـذا ولـدك يـا جيـل، إني أرى فيـه شـجاعة أبيـه ولا بـدع فـإن هـذا الشـبل مـن ذاك الأسـد، وأرجـو أن أسـميه فـارس الملـك قريبـا كـما أسـميت والـده قبلـه.

(هنـا تُسـمع حركة على الباب. يلتفـت الملك حنقا فيرى الحاجب داخلا)

المشهد الخامس

الحاضرون. الحاجب

الحاجـب: مـولاي.. رجـلان مـن عظـماء فرنسـا يشـددان الرجـال بحظـوة المثـول بـين يديـك، وقـد وصـلا اليـوم مـن الأراضي المقدسـة.

الملـك (بحنـق): ومـا الـذي أدخلـك أيهـا الوقـح؟ قلـت لـك أن هـذه السـاعة مكرسـة للكونـت جيـل فـلا أسـمح لأحـد أيـا كان إزعاجـي خلالهـا..

الحاجـب: لقـد عملـت بأمـر جلالتـك يـا مـولاي ومانعـت كثـيرا وأفهمـت الآتـين أوامـرك العاليـة.

الملك: إذا؟؟

الحاجـب: ولكنهـا قـد أصرا عـلى طلبهـما وشـددا عـليّ في الاسـتئذان لهـما بالدخـول مدعيـين أنهـما آتيـين لأمـر ذي بـال وأن مهمتهـما لا تحتمـل تأجيـلا.

الملك: ومن هما هذان الآتيان؟ أراهما شـديدي الوقاحة!

الحاجب: هما ريمون دي سوف ولاندري دي كومولاس

(تظهر الدهشة على الملك وجيل)

جيل (على حدة): لاندري وريمون أشجع رجال الحملة الصليبية. وقد أتيا هما أيضا بدون سابق إخبار بمجيئهم (إلى الملك) أرجو منك يا مولاي السماح لهما بالمثول لدى جلالتك، فلا بد كمن أمر خطير يدفعهما إلى إحراج موقف الحاجب.

الملك: ليدخلا..

(يخرج الحاجب ثم يدخل وأمامه الزائران)

المشهد السادس

الحاضرون. ريمون ولاندري (يدخلان وعليهما هيئة السفر)

جيل: أهلا بالأصدقاء الأوفياء رفاق الجهاد المقدّس في فلسطين..

(يقول هذا ويتقدم منهما مادا يده لمصافحتهما وعلامات البشر تعلو وجهه فلا يلاقي منهما إلا النفور والتباعد فيتراجع دهشا)

الملك (يلاحظ ما جرى وينتهر الزائرين قائلا): ما معنى ما تفعلان أيها الفارسان؟ أتجرآن على إهانة هذا البطل أحد أركان المملكة بحضوري وفي عقر قصري؟!!

لاندري (يتقدم وبهيئة منكسرة يركع أمام الملك ويقول): يا مولاي معاذ الله أن تبدو منا أقل بادرة يشتم منها شيء من الإهانة لجلالتك أو لأحقر عبد من عبيد جلالتك المخلصين.. إنما هي غيرة شديدة على

شرف مولاي الملك مسكت أيدينا عن مصافحة هذا الرجل المارق خائن بلاده الذي نتوسّل إليك أن تطرده من حضرتك!

الملك: وهل تشير إلى الكونت جيل؟

(لاندري يقف ويخلع قفازا من يده ويرشق به جيل فيصل إلى صدره ويقع عند قدميه)

الملك (بغضب): خسئت أيها اللئيم! فستكفر عن عملك الآن!

لاندري: إني مستعد يا مولاي أن أشفع قولي باالبراهين الراهنة الدالة على حقيقة التهمة، فلذا أسأل مولاي الملك أن يعقد مجلسا من عظماء المملكة وأشرافها لأدلي أمامهم بما يعزز قولي ويثبت التهمة ليعرف الجميع الخيانة العظمى التي ارتكبها هذا الخائن..

جيل: لقد طفح الكيل، ولا بد عن التكفير عن إهانتك بدمك (يستل حسامه ويهجم على لاندري، ولكن هذا يبقى مكتوف اليدين لا يبدي حراكا)

الملك: قف وأرجع سيفك إلى غمده وإياك رفعه بحضور ولي نعمتك!

(يرجع جيل حسامه إلى غمده)

لاندري (يرسل إلى جيل نظرات احتقار ويقول): لا يحطن هذا الأمر من قدر جلالة مولاي، فإني لأرفع سيفي بوجه خائن..

الملك: كفى كفى، وإني أطلب منك يا لاندري أن تثبت مدعاك بالبرهان.

لاندري: إذا سمح مولاي الملك فإني مستعد لذلك.

(يجلس الملك على عرشه ويشير إلى جيل ولاندري فيقفا أمامه موقف الخصمين المتحاكمين ويبقى ريمون وراعول إلى جانب المكان يستمعان)

لاندري: إني الآن وبحضور جلالة ملك فرنسا المعظم أتهم جيل دي فيرفوكون بتزلفه إلى أعدائنا وبتسليمه إليهم كتيبة من جيشنا مؤلفة من أظهر رجالنا الصليبيين وعلى رأسها بطل مغوار يدعى سيجوفروا.. وما دافع جيل إلى هذه الخيانة إلا الكراهية التي يحفظها في صدره لهذا الأخير؟!

(يتراجع العموم وجلين أمام هذه التهمة)

جيل (تعلو وجهه حمرة الحنق ويصرخ): إن هذا الرجل كاذب ومدعاه باطل وقد كان صديق سيجوفروا الحميم.

لاندري (يقاطعه): أجل إني أفاخر بصداقة هذا البطل الأمين كما أن رفيقي هذا ريموند كان صديق جيل وهو يضم صوته إلى صوتي بشكوى صديقه لخيانة فظيعة ارتكبها فضلا عن أن جميع أفراد وقواد الجيش الصليبي يشهدون بحقيقة وقوعها.. هذا وليتأكد مولاي أن جيل قد هرب من موت محتم كان ينتظره لقاء هذه الخيانة، ولكن عين الله سبحانه لا تنام أبدا فهي ساهرة ترقب أعمال البشر وها إن الخائن يقع بين أيدي القضاء فلا بد أن العدل يجري مجراه ويلاقي كلٌّ جزاء عمله..

الملك: تابع حديثك وادعم تهمك بالبراهين المثبتة.

لانـدري: إليـك يـا مـولاي الحـوادث كـما وقعـت... مـا وصلـت الجيـوش الصليبيـة إلى الـشرق حتـى أعلـن العـداء بـين جيـل دي فيرنفوكـون وبـين فـارس مـن أظهـر وأبسـل فرسـاننا يدعـى سـيجوفروا.. لقـد كان الاثنـان بطلـين مجربـين، أبليـا أحسـن بـلاء في الأعـداء، ولكـن الحسـد كان يـأكل صدريهـما ويقلـق خاطـر الجيـش عليهـما، وقـد طالمـا سـعى أصدقاؤهـما للتوفيـق بينهـما فيظهـرا بمظهـر الصداقـة، ولكنهـا صداقـة وقتيـة لا تلبـث أن تنقلـب إلى عـداوة شرٌّ مـن الأولى.. ولسـنة خلـت يـا مـولاي قامـت الجيـوش الصليبيـة بحملـة كبـيرة عـلى جهـات سـوريا وقـد اتفـق أن كان جيـل وسـيجوفروا قائـدي فرقتـين فيهـا وكنـت أنـا معهـما فرأيـت أن أعمـل عـلى إخـماد مـا بينهـما مـن نـيران التحاسـد والبغضـاء خصوصـا وهـذه الحملـة تتطلـب وحـدة قـول واتحـاد قلـوب لتنـال الانتصـار، فأديـت مأدبـة فاخـرة دعـوت إليهـا كبـار رجـال الجيـش ظانـا أن مسـعاي يُكلّـل بالنجـاح، فشربـت فيهـا الأنخـاب وتبودلـت وعـود الإخـلاص والمحبـة وانفـرط عقـد الاجتـماع والـكل راج منـه خـيرا، ولكـن سرعـان مـا أملتـا فلـم يمـض يـوم واحـد حتـى عـادت العـداوة وعـاد الـشر بـين الرجلـين.. ففـي صبـاح أحـد الأيـام جاءنـا جيـل شـاكيا خصمـه سـيجوفروا بأنـه أراد أخـذه غيلـة وقـد عمـل عـلى قتلـه ليـلا وهـو نائـم في سريـره فأنكـر سـيجوفروا التهمـة واستشـهد جيـل بخادمـه، ولكـن هـؤلاء الشـهود أنكـروا كلهـم مـا ادعـاه سـيدهم وظهـرت للمـلأ بـراءة سـيجوفروا وسـوء نيـة جيـل.

(يهـم جيـل بالوثـوب عـلى خصمـه ثانيـة، ولكـن إشـارة مـن الملـك توقفـه ويكمـل لانـدري)

وبعد مضي يومين على هذه الحادثة وقعت الخيانة الكبرى التي هرب جيل على أثرها.. ذهب جيل على رأس رجاله بحملة إلى الجبل وذهب سيجوفروا من جهة أخرى ومعه نخبة نخب الرجال الصليبيين وكنت أنا مع الذاهبين وكانت خطتنا التغلغل في أراضي الأعداء مارين بمضيق في لبنان.. مشينا يا مولاي مدة يومين حتى وصلنا إلى ذاك المضيق فصادفنا فيه ما صادف رولان في رونسوفو... عرف الأعداء بمرورنا في هذا المضيق فكمنوا لنا ونكلوا فينا أشد تنكيل ولم يخلص من الخمسمائة فارس مؤلفي الحملة أحد غيري، أما تفاصيل الواقعة فإليكها: ما وطئت أقدامنا مدخل المضيق حتى فوجئنا بأصوات فرح فوق رؤوسنا فتطلعنا وإذا بالأعداء يصرخون ثملين بنشوة انتصار كبير ينتظرهم وقد سدوا علينا السبل كلها وهم في أعالي الجبال متمنعون وراء صخورهم يشرفون علينا ولا قبل لنا نحن عليهم لوجودنا في قعر الوادي، فأخذوا يمطروننا وابلا من سهامهم ومن الحجارة ثم هاجمونا لما أنسوا منا الضعف فقابلناهم بشجاعة المستميت وقاتلناهم قتالا لم نترك فيه ضربا من ضروب الحرب حتى أتيناه ولكنهم تغلّبوا علينا ولم ينجُ أحدٌ غيري فرجعت إلى معسكر الصليبيين وحدي وعرفت أن جيل قد اختفى ولم تُعرف أخباره.

(تبدر من الملك بادرة دهشة ويردف لاندري قائلا)

لقد ذهب جيثل هو أيضا كما قلنا على رأس حملة، ولكنه لم يلبث أن رجع ولم يغب أكثر من يوم واحد وكان أصفر اللون منقلب السحنة فأعلن للرفاق عزمه على ترك الجهاد والعودة إلى وطنه فشدد عليه

رجالـه وأصدقـاؤه وزمـلاؤه والقـواد في البقـاء فلـم يلاقـوا منـه إلا إصرارا عـلى الابتعـاد عنهـم وحجتـه أن الشـوق لوطنـه وأولاده يلهـب حشـاه وقـد ركـب البحـر وابتعـد...

فلـو سـألناك يـا مـولاي عـن هـذه العـودة الفجائيـة بعـد كمعرفـة الجميـع بسـابق تصريحاتـه عـلى الرغبـة في البقـاء مجاهـدا إلى النهايـة، مـاذا تجيـب.. أهـي عـودة شـوق أو هـرب؟ قلـت يـا مـولاي أني رجعـت وحـدي بعـد تلـك الكـسرة المشـؤومة في المضيـق ونظمـت حملـة جديـدة وعُـدت للأخـذ بالثـأر.. وصلـت إلى حيـث نشـبت المعركـة ورأيـت جثـث رجالنـا مالئـة تلـك الأنحـاء وقـد سـهل علينـا جـدا معرفـة جثـمان سـيجوفروا بالرغـم مـن تهشـم رأسـه بضربـة فـأس وكان إلى جانـب الجثـة قتيـل عـربي تـدل هيئتـه ولباسـه وسـيفه الذهبـي عـلى مقامـه الرفيـع بـين قومـه. ففتشـت ثيابـه لأعـرف هويتـه ومـن يكـون مـن الرجـال أخصامنـا فعـثرت عـلى ورقـة هـي هـذه يـا مـولاي:

(يقـول هذا ويقدّم إلى الملك ورقة صغيرة)

الملك: ما هذه الورقة؟

لانـدري: اقـرأ يـا مـولاي.. هـي بخـد وتوقيـع جيـل موجهـة إلى الأمـير العـربي سـيف الديـن الـذي يتكلـم الفرنسـية ويقرأهـا مثلنـا.

الملـك (يأخـذ الورقـة وينظـر إليهـا بـدون اهتـمام في البـدء ولكنـه عندمـا يـرى توقيـع جيـل يحـدث النظـر فيهـا وبعـد قراءتهـا يكفهـر وجهـه ويلقيهـا إلى الأرض باشـمئزاز)

لاندري (يلتقطها ويقول): لقد أفرغت ما في جعبتي يا مولاي ولم يعد من زيادة لمستزيد ولي الرجاء الأكيد أن تأمر جلالة الملك بعقد مجلس من عظماء رجال البلاد والجيش يقف فيه جيل أمامهم وقفته هذه... أنظر يا مولاي.. ألا ترى فيه هيئة الجبان الخائف؟

(يلتفت الجميع إلى جيل فيجدونه أصفر الوجه واهي القوى تبدو عليه علائم الذعر الشديد)

جيل (يجتهد في تمالك نفسه ويقول): مولاي.. لا تصدق كلام هذا الرجل فلم تكن لي يد بهذه الخيانة وهذا المخطوط كاذب.. إني بريء يا مولاي من التهمة التي يحاول هذا الرجل إلصاقها بي براءة الذئب من دم يوسف (وهنا يخفض بصره إلى الأرض ثم يلتفت إلى ريمون ويقول بصوت منكسر) ريمون أيها الصديق الصدوق، يا من كان لي أخا في الجندية، ساعدني.. خذ بناصري.. لقد شربنا من كأس واحدة ورقدنا على مرقد واحد وخلصت جياتك من موت محتم يوما أتذكر؟ فلماذا لا تشد أزري في هذا الموقف الحرج؟

ريمون: لقد أحببتك كثيرا يا جيل وكنت أعلق على هذه المحبة آمالا كبيرة. أما الآن وبعد هذه الخيانة فإني أتناسى الماضي..

جيل (تبدو منه حركة يأس ويلتفت إلى الملك ويقول بصوت خافت ضعيف): يا مولاي اجمع عظماء البلاد واعقد المجلس واحكم عليّ بما تراه عدالتك فإني رهين الإشارة.

الملك (تظهر عليه علامات التأثر ويخرج مشيرا إلى الحضور باللحاق به ويبقى جيل وولده وحدهما)

المشهد السابع

جيل وراعول

راعـول (يرجـع بـين يـدي والـده وبدمـوع حـارة يقـول): أبي ارجـع إلى نفسـك وكـن ثابـت الجـأش. أمـا هـذه الصدمـة فسـتدفعها ببراءتـك وتخـرج منتـصرا طاهـر الذيـل ناصـع الجبـين.

جيل: إن الفشـل ينتظرني يا بني فسـأكون مغلوبا على أمري.

راعول: ولم هذا التشاؤم؟

جيـل: إن التهمـة مدبـرة والخطـة فيهـا منظمـة تنظيـما حسـنا يصعـب دحضهـا، ولا أدري أي الأصابـع لعبـت فحاكـت لي هـذه الحبائـل..

راعـول: لا تستسـلم ليـأس يـا أبي، فـإن الحـق يعلـو مهـما لعبـت حولـه أيـدي البطـل... ألم تـر الكثيريـن مـن المتهمـين زورا يخرجـون مـن أمـام القضـاء بريئـي السـاحة رافعـي الـراس؟

جيـل: قـد يمكن ذلك يا بنيّ ولكن لا أسـتحق أن تنزل رحمة الله عليّ.

راعـول: وما تعني بهذا القول؟

جيـل: إني وإن أكـن بريئـا مـما يحاولـون إلصاقـه بي فـإن ذنوبـا كثـيرة لتثقـل ضمـيري.. وقـد تنبـأ لي رجـل اللـه في سـوريا أن مصابـا عظيـما سـيحل بي وهـذه النبـوءة كانـت السـبب في هـربي، ولكـن أيـن المهـرب مـن غضـب اللـه؟

راعـول: وهـل مـن الحـق أن تُجـازى عـلى جريمـة لم تقترفهـا؟! كـن ثابـت الجـأش ودافـع عـن براءتـك بشـجاعة إن لم يكـن لأجلـك فرحمـة بـأولادك وحفظـا لـشرف اسـمك.

جيـل: إنـك لتتكلـم بكـبر وأنفـة يـا ولـدي ولا حـق للبنـين والأحفـاد أن يؤخـذوا بجريـرة أبيهـم.. فـإلى الغـد يـا بنـي، إلى الغـد، وإن غـدا لناظـره قريـب..

ينزل الستار

الفصل الثَّاني

يمثل المسرح سجنا وعلى بابه سجان وفي داخله جيل

•••

المشهد الأول

جيل (من داخل سجنه يتأوه ويقول)

جيل: رحماك ربي وعونك على احتمال هذه المصيبة.. إلهي أنت العارف بأسرار القلوب والواقف على حقيقة ما يجري بين البشر.. تقبل هذا القصاص كفارة عن ذنوبي يا أرحم الراحمين.

السجان: لله هذا السجين ما أكثر تأوهاته.. فهو يصرخ ليل نهار مسترحما مستغفرا ولا أدري إذا كانت طلباته هذه صادرة عن قلب تائب حقيقة أم هي طلبات يدفعه إليها موقفه في هذا السجن المظلم لعلها تجد إلى قلوب بعض أولياء الأمر سبيلا فيرثي لحاله ويخفف وطأة سجنه عليه.. أسمعه من جهة يتطلب رحمة من الله وغفرانا لذنوبه ومن جهة أخرى يقول ببراءة ساحته من التهمة التي زُجّ لأجلها في أعماق السجن.. فهل من سر يا ترى يحوم حول هذا السجين؟ وما الذي أوصله إلى هذا المحبس المظلم الذي لا يدخله إلا الأشقياء المجرمون والخونة الأثيمون؟ لقد جرى العدل مجراه بلا بد واستحق جزاء جريمة اقترفها فلينل جزاء ما اقترفت يداه ولا يقلق راحتنا بهذه التأوهات المزعجة (يقترب إلى باب السجن ويقول): كفاك صراخا يا هذا وكفاك تأوها وتحسرا فلقد أقلقت علينا راحتنا وأطرت الكرى من جفوننا وحرمتنا لذة النوم... وليس من العدل بشيء أن تكون

أنت المجرم وأن نشاركك نحن في العذاب والسهر.. تحمل مصيبتك بصبر فسينصفك الله إن كنت بريئا..

جيل: أجل أشرب هذه الكأس بصبر وأتحمل صليبي بشكل لعل إله المراحم يرحمني برحمته ويتقبل عذابي كفارة عن خطاياي وفداء عن ولدي راعول.. إلهي بحق أنبيائك وأصفيائك أنظر إلى عبدك الخاطء وألهمته الصبر وشدده على احتمام التجربة (يسكت قليلا ثم يردف بمرارة وحزن): هو جزاء عدل نزل بي لآثام ارتكبتها ولكن آثامي الكثيرة هي غير التهمة التي ألصقت بي ودخلت هذا السجن لأجلها.. لقد اتهموني باطلا بخيانة كبرى أنا براء منها براءة الذئب من دم يوسف ولكني لم أقو على دحضها وضحيت بعدها هزءا وسخرية لمعارفي وموضوع شماتة لأعدائي.. لقد شكل المجلس برآسة جلالة الملك وحضور عظماء رجال الدولة وأشراف البلاد وبسط المتهمون تهمهم أمام الحاضرون وكانت فظيعة جدا تأثر لها السامعون إشفاقا واشمئزازا، أما الإشفاق فعلى اسم دي فيفوكون الذي تدنسه هذه التهمة وتنزله إلى الحضيض بعد ذلك العز الباذخ.. وأما الاشمئزاز فمن التهمة التي ألصقت بي وكنت ضعيفا وضعيفا جدا على ردها لعلمي العلم الأكيد أن لا بد من قصاص رهيب ينزله الله بي وكأن ضعفي وسكوتي قد شددا عزائم أعدائي فأخذوا يقذفون بحقي كل فرية ويسخرون بي ويرموني بكل شنيعة حتى صرت مُحتقرا مرذولا ممتهنا.. وها أنا في هذا السجن أجر ذيول الذل والإهانة.. رباه هل من رحمة من لدنك يا إله المراحم تفرج همي وتخفف بلواي؟ هل من رحمة تعيد إلى قلبي الكسير حياة وإلى ولدي راعول فرجا بعد ما لحقه

مـن المسـكنة والـذل؟... راعـول... ولـدي حبيبـي... أيـن أنـت الآن ومـا كان تأثـير هـذا الحكـم عليـك بعـد ذلـك الجـاه العريـض وبعـد ذلـك الـدلال الـذي ربيـت عليـه؟ لقـد كُسر قلبـك ولا بـد وإني لأتمثلـك الآن محتقـرا مـن أترابـك، منبـوذا ممـن كانـوا يتزلفـون إليـك، منظـورا إليـك بعـين السـخرية والهـزء ممـن كانـوا يترامـون عـلى أقدامـك خاطبـين ودك وراجـين نـزرة عطـف مـن لحظـك.. وكل ذلـك لتهمـة لحقـت أبـاك أو بالحـري لذنـب اقترفـه أبـوك فصـح معـك قـول القائـل «الآبـاء يأكلـون الحـصرم والأبنـاء يضرسـون».. إلهـي أنظـر إلى عبـدك الخاطـئ وارحمـه يـا أرحـم الراحمـين.

(يختفـي عـن الأنـزار داخـل سـجنه وتسـود السـكينة هنينـة)

المشهد الثاني

راعول (يدخل)

هـذا هـو المـكان.. هـذا هـو السـجن المظلـم الـذي تنـازل جلالـة الملـك وسـمح لي بولوجـه لمـرأى والـدي بعـد تلـك النكبـة التـي نزلـت بـه وبـأسرة دي فيرفوكـون الشريفـة بالأمـس والذليلـة المهانـة اليـوم.. أجـل ذليلـة بعـد ذلـك المجـد الأثيـل الـذي كانـت الأبصـار تخفـض أمامـه خاشـعة متهيبـة، ذلـك الـشرف الـذي أذكـره بدمـوع حـرى وبقلـب ملـؤه الحـسرات... آه مـا أتعـس هـذه الحيـاة، بـل ومـا أنكـد عيـشي بعـد الآن وقـد صرت إذا مـررت بالشـارع تمـد الأصابـع مشـيرة إليّ وابتسـامة الاحتقـار تعلـو شـفاه أصحابهـا كأنهـم يشـيرون إلى مجـرم أثيـم سـافل.. وقـف أبي أمـام المحكمـة وقفـة منكـسر القلـب وكان الحكـم قاضيـا بإيوائـه السـجن إلى الأبـد وبتجريـده

مـن الحقـوق المدنيـة، وإن جريمـة نظـير التـي أثبتـت عـلى والـدي لينـزل القانـون بصاحبهـا حكـم الإعـدام، ولكـن الخدمـات الجليـلات السـابقة شـفعت بوالـدي وخففـت الحكـم عليـه.. وعنـدي أن المـوت أشرف مـن حيـاة ذل ومهانـة.. ولكـن.. ولكـن والـدي بريـئ مـن التهمـة التـي أصقـت بـه وقـد لاحظـت ذلـك في عينيـه وفي حركاتـه. ومـا كان وقوفـه أمـام القضـاة موقـف الضعيـف إلا لـسر يحفظـه لنفسـه ولم يبـح بـه لأحـد. فـما يكـون هـذا الـسر يـا تـرى؟؟

سر قضيـت ليـلي في التفكـير فيـه وفي اسـتجلاء غامضـة، ولكـن عبثـا فعلـت، ولذلـك قصـدت إلى جلالـة الملـك وانطرحـت عـلى قدميـه باكيـا وتوسّـلت إليـه أن يسـمح لي بمقابلـة والـدي مقابلـة أخـيرة وحجتـي وداعـه وإنمـا نيتـي الحقيقيـة هـي كي أرجـو منـه أن يبـوح لي بـسره لعـل اللـه يؤتينـي فرجـا ويسـاعدني عـلى جـلاء الغامـض في هـذه الحادثـة.

(يتقدم من باب السـجن وينادي)

أبـتِ.. مـولاي.. أنا راعول ابنك.. هلم إلي يا أبي..

جيـل (مـن داخـل سـجنه): راعـول؟ ولـدي؟ ومـا الـذي أتى بـك إلى هـذا السـجن المظلـم؟ أرجـع يـا بنـي ولا تنظـر إلى والـدك الـذي أنزلـك إلى الحضيـض.. أرجـع وترحـم عـلى أبيـك وكـن رجـلا يتحمـل مصائـب الزمـان بصـبر.

راعـول: أبـتِ.. هلـم إلى ابنـك فإنـه آتٍ إليـك ليقبـل يديـك ويشـاطرك حزنـك.. تعـال يـا ولـدي تعـال ولا ترجعنـي مكسـور القلـب خائبـا.. (يظهـر جيـل) أبي والـدي الحبيـب..

المشهد الثالث

جيل (يظهر على باب السجن فيرتمي راعول بين يديه)

جيل: ولدي.. حبيبي راعول (يتعانقان وبعد التعانق الطويل يقول): ما الذي أتى بك إلى هذا المكان يا بني؟ وهل عرفت أن اختراق جدران هذه السجون الكثيفة جريمة لا تُغتفر؟

راعول: لقد عرفت ذلك يا أبي.. ولكن آليت على نفسي ألا أخترقها مهما كلفني الأمر.. فقصدت إلى الملك وتوسلت إليه أن يأذن لي بدخولها فأذن وجئتك باكيا متأسفا راجيا.. أما البكاء والأسف فلا حاجة إلى سرد سببهما وواقعة الحال أفصح لسان لذاك أما الرجاء فهو إليك يا أبي وأملي شديد أنك لا تضن عليّ بما أطلب.

جيل: روحي فداك يا بني فسلني ما تريد.

راعول: لقد لاحظت أمس في سياق المحكمة أنك بريء مما اتهمت به وإنه كان بإمكانك دفع التهمة عنك، ولكن سرا كمّ فاك عن الكلام فسكت وقبلت احتمال هذه العذابات طوعا وفضلت السجن على الإقاضة بسرك إلى قضاتك.. فهل لك أن تسرد عليّ الآن قصتك وتفتح لي صدرك فأقرأ فيه السر الذي سكتّ عليه بالأمس؟

جيل: مالك ولهذا المطلب يا ولدي؟ لقد شاء الله أن ينزل عدله فيّ ففعل ولا مرد لأحكامه وما عليّ إلا أن أشرب كأسي حتى الثمالة بصبر وشكر.

راعـول: إذا كنـت تـرى نفسـك مسـتحقا لمـا نـزل بـك مـع علمـي العلـم الأكيـد ببراءتـك، فليـس مـن العـدل أن يصـاب ابنـك بمـا أصبـت بـه.. فبـح لي بـسرك بحـق والـدتي التـي تنظـر إلينـا الآن مـن عـالي سـمائها.. بـح بـه إلى راعـول ابنـك ووحيـدك لعلـه يتمكـن مـن اسـترداد شرفـك أو عـلى الأقـل شرف دي فيرفوكـون.

جيـل: نعـم مـا تقـول يـا ولـدي وإن نفـسي لتثلـج لهـذه الأنفـة التـي يدفعـك إليهـا شرف محتـدك، وتـراني نـازلا عنـد رغبتـك فاصـغ لأقـص إلى جانبـه عليـك الحقيقـة التـي لا رثـاء فيهـا.

(يجلـس جيـل ويحلس راعول ويبدأ الوالد بالكلام)

اسـمع يـا بنـي وعِ كلامـي واحكـم بعـد ذلـك عـلى والـدك الحكـم الـذي تـراه مسـتحقا لـه.. أبـدأ بسـيجوفروا هـذا الرجـل الـذي رُميـت بخيانتـه.. لقـد كان بطـلا مغـوارا لا يهـاب المـوت وقـد أبـلى بالأعـداء أحسـن بـلاء وكثـيرا مـا فـرق صفوفهـم وأزهـق أرواحهـم وخـاض المعـارك مكافحـا زعمائهـم فـكان المتبـصر الظافـر... ولكـن طباعـه كانـت شرسـة وأخلاقـه سـيئة ولم يكـن مجيئـه إلى الأراضي المقدسـة عـن محبـة منـه خالصـة للجهـاد ونيـة أكيـدة لتخليصهـا مـن أيـدي الأعـداء فقـط كـما ظـن الجميـع فيـه، بـل كان دافعـه إلى التطـوّع في الصليبيـة الجـاه العـالي والطمـع في حشـد الأمـوال واكتسـاب الغنائـم مـما كانـت تطـول إليـه يـده مـن الأعـداء... ولم يقـف أحـد عـلى حقيقـة نوايـاه غـيري ولذلـك كان يبغضنـي دون سـائر الصليبيـين ويضمـر لي الـشر، وكثـيرا مـا نصـب الأشراك لاغتيـالي ولكـن يـد اللـه كانـت تخلصنـي دائمـا مـن شروره حتـى أنـه بدهائـه أمـال إلى جهتـه

خدمي فأصبحوا معوانا له عليّ وقد سطا في إحدى الليالي على خيمتي لاغتيالي في فراشي ولكن الله لم يشأ أن تتم هذه الجريمة وأيقظني من غفلتي في الساعة الموافقة ورددته خائبا وشكوت أمره إلى الرفاق فأنكر، وبمساعدة خدمي المرتشين كذب مقالي.. وبقيت الحال على هذه المنوال حتى جرت تلك الموقعة التي قُتل فيها وجنوده واختفى أثره ورجعت أنا إلى بلادي بعد أن كان الكل عارفا بعزمي على الجهاد إلى النهاية. وكان والحق يقال رجوعي الفجائي المصادف بعيد اختفاء سيجوفروا مجلبة شكوك فيّ فذهبوا في أمري كل مذهب ورموني بخيانة يعلم الله أن لا يد لي فيها ولا علم أبدا.

(يسكت جيل هنيهة متنهدا تنهدا عميقا ثم يردف قائلا)

أما الحقيقة التي يجب أن تعرفها والتي لأجلها قبلت الحكم عليّ طوعا ورضيت لأجلها بتدنيس اسم أسرة فيرفوكون وإنزال أولادي إلى الحضيض بعد رفيع مجدهم فهي...

كنت آليت على نفسي أن أطارد فرسانا من الأعداء طالما قد باغتونا وأقلقوا راحتنا، فحملت عليهم الحملة التي حدث عنها لاندري وتوغلت في البراري وصعدت الجبال على رأس رجالي جادا في اللحاق بأعدائي وقد غابوا عن أبصارنا فسرنا نريدهم في قرية ظهرت أمامنا وظنناها مأواهم، وكان التعب والعطش قد بلغا من الجند مبلغه فدخلوا القرية وأعملوا في أهلها السيف وفي ديارها النار وأنا أشجعهم.. وكانت ساعة هائلة حدث فيها من الفظائع ما يقشعر لمجرد التفكير فيها بدني.. إني لأذكر يا ولدي بمرارة تلك الأيدي التي كانت تهوي

على الشيوخ والأطفال فتذيقهم أفظع الميتات غير راحمة ولا مشفقة.. رأيت أطفالا ونساء يسترحمون بدموع سخينة وقد لجأوا إلى مكان لم أتميزه بادئ ذي بدء فأمرت رجالي بإحراقه فارتفع اللهيب بين العويل والصراخ واندلع لسان النيران في الفضاء وعيوني تنظر إلى ما يجري ولا يحركها شفقة.. وبعد أن انقشع الدخان عن سطح ذلك المكان شاهدت صليبا يجلل قبته فعلمت حينئذٍ - ولكن بعد فوات الوقت - أني مددت يدي إلى بيت الله وأني اقترفت أفظع الآثام.. وبينما الرعب أخذ مني كل مأخذ إذا بشيخ جليل قد خرج من وسط تلك الأطلال وصرخ بصوت دوى له المكان قائلا: «غفر الله لك يا من اكتسب لعنة الأبرياء».. فوقعت عندئذٍ مصعوقا من هذه اللعنة النازلة على رأسي وبكيت بكاء مرا مسترحما مستغفرا، وكأن حالتي حركت في قلب رجل الله الشفقة فقال: «إن الله رحيم يغفر للطالب منه رحمة ولكن إذا شاء سبحانه أن يرحمك في الآخرة فلا بد من كفارة تؤديها في هذه الدنيا فلا مفر من جزاء الله العادل.. وستلقى قصاصا رهيبا ليس فقط بأموالك وأملاكك وآلك بل بأعز شيء لديك.. بشرفك» .. قال هذا وغاب عني..

أما أنا فبعد ذهول طويل رجعت إلى نفسي وأول ما خطر لي الابتعاد عن ديار تؤلمني تذكاراتها والعودة إلى بلادي أحارب فيها في سبيل وطني العزيز إلى جانب مليكي المحبوب.. فجئت وما وطئت قدماي أرض آبائي حتى دهمتني هذه الداهية الدهياء فتذكرت كلام رجل الله وعرفتها جزاء عدلا من لدنه تعالى وقبلتها بصبر عسى الله يتقبلها كفارة عن خطيئتي..

هـذه حالتـي يـا بنـي وإنـك ولا بـد لعـاذري عـلى سـكوتي أمـام التهمـة التـي وُجّهـت إلي والتـي كان بالإمـكان ردهـا بإيقـاف الملـك والمجلـس عـلى حقيقـة حـالي ولكنـي خشـيت أن أزيـد فظيعـة عـلى فظيعتـي فسـكت وحكـم عـليّ.

(يقول هذا ويطرق إلى الأرض ويسـود السـكوت قليلا)

راعـول (بعـد سـكوت وتفكـير): حسـنا فعـلا يـا أبي، ومـا كان إقـرارك بحقيقـة الواقـع ليخلصـك مـن أشراك عـرف أعـداؤك كيـف ينصبونهـا لإيقاعـك فيهـا.. ولكنـك بـريء مـن التهمـة التـي رُميـت بهـا وسـجنك لأجلهـا ظلـم.. ولا بـد أن اللـه يتقبـل هـذا القصـاص كفـارة عـما أتيـت.

أمـا مـن جهتـي فالحكـم عليـك وتشـبث أعدائـك بإيصالـك إلى مـا وصلـت إليـه لا يزيـدني إلا اقتناعـا بوجـود سر لا بـد مـن كشـفه، سـأعمل عـلى كشـفه مهـما كلفنـي الأمـر وسـأعلن للملأ براءتـك وأشـهر المجرمـين السـفلة الذيـن أرادوا النيـل مـن شرفـك فـكان لهـم مـا أرادوا.. سـأذهب إلى الأراضي المقدسـة فهنـاك بـاب الفـرج. هنـاك مفتـاح السـر واللـه المسـؤول أن يقـود خطـاي إلى غايـة رحلتـي، سـأذهب ولـن أعـود إلا واسـم دي فيفوكـون مقـرون بالاحـترام والمهابـة.

جيـل (يتأثـر): خفـف مـا بـك يـا بنـي ولا تستسـلم إلى حـدة الشـباب، بـل سـلم للـه أمـرك فهـو لا يخـذل المتكلـين عليـه.. كـن رجـلا وتحمّـل مصابـك بصـبر ولا تخاطـر بحياتـك..

راعـول: سـأكون رجـلا يـا أبي... رجـلا بالمعنـى الحقيقـي الـذي أفهمـه أنـا وتفهمـه أنـت... رجـلا أهـلا لحمـل اسـم دي فيرفوكـون ولـن أسـكت عـلى

الضيـم مـا دام فيّ عـرق ينبـض.. (يقـف بتهيّـب) فلـذا أمامـك يـا والـدي أرفـع يـدي مقسـما باللـه وملائكتـه وبـك وبـشرف دي فيرفوكـون أن أذهـب إلى الأراضي المقدسـة مجاهـدا جهـادا مقدسـا مزدوجـا ولـن أعـود إلا رافـع الـرأس تخفـق فوقـه أعـلام دي فيرفوكـون شريفـة معـززة مكرمـة واللـه ولي أمـري.. فباركنـي إذا ولتكـن بركتـك زادي في هـذه الرحلـة الشـاقة (يركـع أمـام والـده)

جيـل: إذا كان لا بـد مـن الذهـاب، فاذهـب يـا بنـي واللـه مـن أعـلى سـمائه يبـاركك ويـرأف بـك ويقـود خطواتـك إلى مـا فيـه الخـير.. سر وعـين الـرب ترعـاك وقلـب والـدك أبـدا خافـق لمـرآك.. (يعانقـك ودموعـه هاطلـة)

راعـول (يقبـل يـد والـده): الـوداع أبـتِ.. إلى الملتقـى القريـب إن شـاء اللـه..

(يتفلـت مـن بـين يـدي والـده ويـسرع إلى الخـارج، ولكنـه قبـل الاختفـاء يقـف وينظـر إلى والـده متفرسـا فيـه بحـزن وحرقـة كأنـه يريـد أن يطبـع رسـمه في قلبـه. بينـما والـده يمسـح دموعـه ويختفـي داخـل سـجنه)

راعـول: الوداع يا والدي.. الوداع..

ينزل الستار

الفصل الثَّالث

يمثل المسرح برية في فلسطين

•••

المشهد الأول

راعول. نيفار.جاك. أدمون

(يدخلون إلى المسرح بعد رفع الستار بهنيهة وعلى صدر كل منهم شارة الصليبية)

راعول: صبرا أيها الرفاق على مضض الحياة، فوصولنا إلى هذه الديار المقدسة بعد ما عانيناه من الأهوال في البحر وبعد تلك الزوابع التي هبت علينا منذ تركنا بلادنا لنعمة ما فوقها نعمة. وإن الله سبحانه الذي خلصنا من تلك الأخطار لقادر أن يأخذ بيدنا في هذه الحملة وأن يؤتينا فرجا قريبا.

نيفار: لم نرافقك أيها الصديق لنحملك همنا كلا.. فكلنا سواء في هذا الجهاد الذي دعوتنا إليه والذي آلينا على أنفسنا أن نصل فيه إلى النهاية. فأي فرح لنا أعظم من الوصول إلى هذه الأراضي المقدسة التي كثيرا ما سمعنا والدينا يرددون ذكرها على مسامعنا، وقد طالما هاب بنا الشوق إليها وإلى لثم ثراها.. ولكننا لا نمسك أنفسنا عن إظهار أسفنا الشديد على فقد إخواننا في الجهاد، أولئك الذين اقتفوا أثرنا وتركوا بلادهم ليرافقونا في صليبية الأحداث هذه، وركبوا البحر إلى جانبنا فأبى الله إلا أن يكتفي بجهادهم المبرر قبل وصولهم إلى هدفهم،

فناداهـم إليـه فلبّـوه فائزيـن بالإكليـل المعـدّ للمجاهديـن إذ ثـارت عليهـم ثائـرة البحـر وتقاذفـت الأمـواج سـفينتهم وتغلبـت عليهـم فذهبـوا في اللجـة وقضـوا ضحيـة غيرتهـم.

جاك: رحمهم الله رحمة واسـعة وجعلهم في مصاف شـهدائه الأبرار.

راعـول: إنهـا لسـاعات شـديدة مـرت بنـا فقدنـا فيهـا رفاقـا كثـيرا مـا علقنـا عليهـم الآمـال، وقـد كدنـا ننـال نصيبهـم لـولا أن اللـه أشـفق علينـا أو بالحـري أراد أن يطيـل بعمـري أنـا عـلى الأخـص لأتـم المهمـة التـي جئـت لأجلهـا.. ولهـذا هنـا وفي هـذه الأراضي المقدسـة أكـرر قسـمي بالجهـاد بإخـلاص وتفـان كـما أني أرجـو منكـم أن تعـدوني الوعـد ذاتـه الـذي وعدتمـوه قبـل ركـوب البحـر، وهـو ألا يقعدكـم شيء عـن الجهـاد وعـن إتمـام المهمـة التـي أتينـا لأجلهـا إلى النهايـة..

الرفـاق الثلاثـة (يرفعـون أيديهـم ويقولـون): نقسـم أن نتابـع جهادنـا إلى النهايـة.

راعـول: عافاكـم اللـه أيهـا الرفـاق وأتاكـم مبتغاكـم.. والآن وقـد مضـت علينـا مـدة لم نـذق فيهـا طعامـا ولا شرابـا فلنسـع وراء مـا يسـد جوعنـا ويبـل رمقنـا وهـذه الخـضرة لدلالـة عـلى أن الميـاة قريبـة والأراضي آهلـة.

نيفـار (ينظـر إلى الخارج): أرى رجلا آتيا لعله من سـكان هذه الديار.

المشهد الثاني

راعـول ورفاقه الثلاثة. الأمير خالد

خالـد: قفـوا يـا أنـذال الكفـرة قفـوا.. مـا الـذي أتى بكـم إلى هـذه الديـار وكيـف جرأتـم عـلى دوس هـذه الأرض الطاهـرة بأقدامكـم النجسـة؟

راعـول: مهـلا أيهـا السـيد فإننـا غربـاء ضللنـا الطريـق ولم نـكُ لنعلـم أن المـرور بهـذه الأرض محـرم!

خالـد: خسـئت أيهـا الوقـح.. إنـك لمـن أنـذال الصليبيـين أعدائنـا فاسـتعد ورفاقـك للمـوت.

راعـول: المـوت؟ وهـل الحيـاة إلا بيـد اللـه يؤتيهـا مـن يشـاء؟ ومـن تكـون أنـت حتـى تريـد سـلبها منـا يـا هـذا؟؟

الرجـل: أنـا سـيد هـذه البـلاد وحاكمهـا المُطـاع.. أسـمعت أيهـا الوقـح الزنيـم؟ وبيـدي المـوت والحيـاة أهبهـما مـن أشـاء وأحرمهـما مـن أشـاء..

(يقول هذا ويشـهر سـيفه في وجه راعول مريدا قتله)

جـاك (بـأسرع مـن لمـح البـصر يأخـذ خنجـرا ويرسـل إلى الفـارس مـن ورائـه طعنـة تلقيـه إلى الأرض مضرجـا بدمـه ويقـول): مُـت فأنـت الجـاني عـلى نفسـك!

أدمون: لا شُـلّت يمينك يا جاك.

راعـول: مـا كنـا واللـه لنريـد مثـل هـذه الفاتحـة لمـا أتينـا لأجلـه في هـذه الديـار، ولكـن هـو البـادئ ولم يكـن بـد مـن هـذه الضربـة اتقـاء لـشره..

فعلينا إذا أن نحظر نتيجة ما أتانا.. الرجل سيد البلاد المطاع وإذا درى ذووه بأمرنا أذاقونا شر العذاب.. فلنبتعد عن هذا المكان قبل أن يفوت الوقت.

نيفار: أظن أن سلاح القتيل يلزمنا في رحلتنا الشاقة فسنستخدمها على الأقل لرد ما ربما يعترضنا في طريقنا من الحيوانات.

راعول: بالصواب نطقت. خذوا ما تريدون أخذه أما أنا فلي سيف والدي أكتفي به إذا ما دهتنا الدواهي فهو خير نصير لي في الملمات بعد الله. (يأخذ الرفاق سلاح القتيل)

راعول: هبوا بنا الآن أيها الرفاق ولنبتعد (يخرجون)

المشهد الثالث

القتيل على المسرح. زيد. عمر. سعيد واثنان آخران

سعيد: لقد تبلّغنا أمر مولانا نوافيه إلى هذا المكان فهو سابقنا إليه.. ولكنه لم يأت بعد فننتظر لعل موانع أخرت مجيئة.

زيد: أرى جثة ملقاة على الحضيض. فمن يكون هذا الغبي الذي استسلم لسنة الكرى فنام في وسط الطريق (يتقدم) يا الله! أرى الدماء حوله.. هو جثة باردة.. أنظروا حقيقة ما ترى عيناء أم أن أحلاما تروعني وأنا يقظان؟

عمر: ماذا دهاك يا زيد ومالي أراك تضطرب وعهدي بك بطلا وقت النزل، وهل تخاف نائما؟

زيـد: لسـت بخائـف واللـه عـلى روحـي إنمـا هـي الحقيقـة التـي أراهـا تصطـك لهـا أسـناني، تعالـوا إلي وانظـروا.. ألا تـرون سـيدنا ومولانـا مضرجـا بدمائـه؟ أم أني أحلـم وسـط النهـار؟

سـعيد: خفـف عنـك وهـدئ روعـك. فمـن تـراه يجـسر عـلى التطـاول عـلى كمقـام زعيمنـا الأكـبر؟ وهـا يهاجَـم الأسـد في عرينـه؟

زيد: أنظروا.. هـو بعينه.. الويل لقاتله..

الجميـع (يتراكضـون إلى الجثـة وبعـد أن يحدقـوا فيهـا النظـر يصرخـون): الويـل للقاتـل..

زيـد: وأرى أنـه مأخـوذ غيلـة؛ لأن الطعنـة موجهـة إليـه مـن وراء ظهـره وإلا لمـا تمكّـن الغـادر مـن الظفـر بـه. لم تمـض مـدة طويلـة عـلى الحـادث ولا بـد أن يكـون القاتـل قريبـا مـن هـذه الديـار.. هبـوا بنـا ولنجـد في أثـره قبـل أن يبتعـد.

سـعيد: أنظـروا هنـاك.. ألا تـرون أربعـة فتيـان راكضـين؟ لعلهـم القتلـة.. هبـوا بنـا نسـع وراءهـم (يخرجـون)

المشهد الرابع

أصوات من الخارج

صوت سعيد: قفوا يا أنذال الناس. فقد حانت ساعتكم الأخيرة..

راعول: خسئتم! فلا يد لكم تُمد إلينا.. إلى الوراء وإلا فالموت ينتظركم .. لم نتعمد الشر لسيدكم بل كان هو المعتدي علينا..

صوت زيد: قفوا فلا مفر لكم من قضاء الله وقدره..

(يُسمع في الخارج صليل أسلحة وصراخ.. قفوا.. خسئتم.. إلى الوراء)

المشهد الخامس

(يدخل زيد وسعيد وعمر وأمامهم راعول ورفاقه مشدودي الأكتاف)

سعيد: تقدّموا أيها الأنذال فسترون كيف التطاول على مقام السيادة الفخيمة (إلى راعول) وأنت أيها الفتى الوقح المتقلد عن جهل وغباوة قيادة هؤلاء الزعانف من أطفال الصليبيين أعدائنا الألداء فسترى أن قصاصك يعاجل عظم الجريمة التي اقترفتها أيديكم النجسة.

راعول (بلين ورقة): تأكدوا يا قوم أننا لم نتعمد قتل سيدكم ولم يكن ليخطر لنا ببال أن نوقع به شرا خصوصا ونحن غرباء الدار لولا أنه هو كان البادئ وقد بادرنا بالتحقير والإهانة فلم يرعو فكان أمر الله..

زيد: صه أيها النذل ولا تفه بعد ببنت شفة.. ألا يكفيكم ما أتيتم

مـن المنكـر ومـا اقترفتـم مـن الجرائـم التـي تصغـر أمامهـا أعظـم الجرائـم حتـى تريـدوا التنصّـل والمكابـرة.. إنكـم لألأم خلـق اللـه وأنذلهـم وأغدرهـم بعبـاده... فكيـف تجرّأتـم يـا أخـس الـكلاب عـلى مـد أيديكـم النجسـة إلى مثـل سـيدنا المفـدى وكيـف رفعتـم أبصاركـم الحقـيرة إلى مقـام رفيـع نظـير مقـام مـن تطأطـئ لـه الـرؤوس احترامـا؟!

راعـول: كفـاك يـا هـذا قدحـا بنـا وحطـا مـن كرامتنـا واعلـم أن بـين جنبـي كل فـرد منـا قلبـا لا يطيـق امتهانـا. فأنزلـوا بنـا مـا أردتـم مـن أنـواع العـذاب وأميتونـا شر مـا تـرون مـن الميتـات ولا تسـمعونا كلمـة مهينـة. فشرفنـا أعـز لدينـا مـن كل عزيـز.

عمـر: وأي شرف تعنـون؟ لـو كنتـم أشرافـا لمـا غدرتـم بسـيدنا بـل لكنتـم قابلتمـوه وجهـا لوجـه وعندهـا تظهـر الشـجاعة. فـلا شرف لكـم ولا كرامـة.

راعـول: كفـاك يـا هـذا إهانـة وكفانـا صـبرا.. أقتلونـا أو خذونـا إلى حيـث تريـدون لنلقـى حتفنـا وكفـوا عنـا كلامكـم.

المشهد السادس

ذاتهم. الأمير فريد (يدخل)

الأمير فريد: ما الاجتماع في هذا المكان؟ ولم هذه الجلبة ومن هم هؤلاء الغرباء؟ وكيف جرأوا على الوصوول إلى أراضي الإسلام المقدسة؟

عمر: مولاي.. هم فتيان من رعاع الصليبيين أتوا ليتجسسوا أعمالنا ويقفوا على دقائق حركاتنا العسكرية، وقد غدروا بسيدنا المفدى ومولانا المحبوب فقتلوه.

الأمير فريد: قتلوه؟! وهل يُعقل أن يجرؤ مثل هؤلاء الصبيان على الإقدام على فعلة يعرفون أن وراءها الموت الأحمر؟!

زيد: لقد فعلوا يا مولاي غير حاسبين حسابا لما ينتظرهم، وقد أتوا فعلتهم المنكرة غدرا.. فإنهم غافلوا سيدنا وهم أربعة وأرسلوا إليه طعنة من وراء ظهره صرعته، وها هو كما ترونه يا مولاي جثة هامدة لا حراك بها.

الأمير فريد: ومن مِن هؤلاء الأثمة سافك دم الأمير؟

زيد (يشير إلى راعول): هو هذا يا مولاي فهو أشدهم بأسا وأذلقهم لسانا فضلا عن أنه المقدم فيهم والآمر المُطاع.

الأمير فريد (إلى راعول): أنت أيها الفتى.. أنت الذي دفعك غرورك إلى هذا الإثم الفظيع.. ألم تقدّر العاقبة؟! لله أبوك ما أجهلك.. أجب ما اسمك وما الذي أتى بك إلى هذه الديار؟؟

راعـول (بكـبر وأنفـة): أمـا اسـمي فراعـو لـدي فيرفوكـون إبـن البطـل الصليبـي الكونـت جيـل دي فيرفوكـون، وقـد طالمـا طـرأ هـذا الاسـم مسـامعكم وكان مفزعـة الأعـداء في الحـروب. وأمـا سـبب مجيئـي إلى هـذه الديـار فلـكي أنضـم إلى صفـوف المقاتلـين الأبطـال وأشـاركهم في شرف الجهـاد الآيـل إلى تخليـص هـذه البقعـة المقدسـة مـن أيـدي الأعـداء.

الأمـير فريـد: دي فيرفوكـون... أجـل إني أعـرف هـذا الاسـم وقـد كان صاحبـه أشـد عـدوّ لنـا. فسـينال ابنـه جـزاء عمـل أبيـه.. لـن تمـوت أيهـا الفتـى ميتـة بسـيطة، فـإن الحيـاة رخيصـة عنـد أمثالـك.. لكنـك سـتحيى حيـاة ذل ومهانـة واحتقـار.. (إلى الخـدم): شـدوا وثـاق هـذا الفتـى وسـوقوه إلى أعمـق السـجون وأظلمهـا وسـوموه كل أنـواع العـذاب ليكـون عـبرة لغـيره، ولكـن حافظـوا عـلى حياتـه والويـل لمـن يخالفنـي.

الجميع: سمعا وطاعة..

الأمـير فريـد (إلى رفـاق راعـول): أمـا أنتـم فقـد تـراءى لي أنكـم مسـيرون غير مخيريـن أو بالحـري لاحقـون بهـذا الغبـيّ الغـرّ المقـدم فيكـم غـير عارفـين مـا أنتـم مقدمـون عليـه، فلذلـك إني أعاملكـم بالرحمـة فسـتكونون بـين عبيـدي.. أذهبـوا الآن مـن أمامـي ولا عـدت أرى لكـم وجهـا في طريقـي..

(يخـرج الجميع ويبقى الأمير فريد وحده)

المشهد السابع

الأمير فريد وحده

دي فيرفوكـون.. وهـل قـدر لي أن يكـون هـذا الاسـم أتبـع لي مـن ظـلي أتمثلـه أنى ذهبـت وأتخيلـه حيثـما حللـت وأرى صاحبـه سـاخطا صاخبـا ورافعـا يـده مهـددا لاعنـا مـع أني بذلـت وسـعي لأنسـاه.. ربـاه أيـن المفـر مـن وجـه هـذا العـدو اللـدود وكيـف العمـل لسـلواه ولنسـيان مـا أتيـت مـن المنكـر بـل ولمحـو تلـك الخيانـة الفظيعـة التـي ألجـأني إليهـا كرهـي الشـديد لـه؟؟ وكأن اللـه لم يكتـفِ بـأن يبقـى هـذا الاسـم شـوكة لي في ضميري تذكـرني مـاضي حتـى بعـث بابـن عـدوي لزيـادة همومـي ولضـم آلام جديدجـة إلى آلامـي ووسـاوسي..

(بعد التفكير)

ولكـن مـالي ولهـذه الهواجـس ولم التحسّـب وممـن أخـاف؟؟ أمـن هـذا الصبـي الغـر الجاهـل وهـو لا يـزال في سـن يخـاف معـه بعـد مـن ظلـه.. أم مـن ذكريـات المـاضي ولي قلـب قـدّ مـن الصخـر لم يجـزع في أشـد المواقـف خطـرا ولم يضطـرب أمـام والـده أظهـر أبطـال الحـروب الصليبيـة.. كلا ثـم كلا سـيجوفروا لا يثنيـه عـن عزمـه شيء وسـينتقم مـن الولـد كـما انتقـم مـن أبنـه وسـيورده حتفـه بعـد أن يلحـق بـه مـن العـذاب مـا يشـفي منـه الغليـل..

أنا سيجوفروا خصم الكونت دي فيرفوكون الألد.. أنا ذلك الذي نصب الأشراك الكثيرة للإيقاع بسليل دي فيرفوكون وقد أصليته نارا حامية وأشهرت عليه حربا عوانا وأقمت الأمراء وأقعدتهم ضده كرها وبغضا حتى أني لم أتأخر عن خيانة قومي وتسليم رجالي إلى الأعداء غنيمة باردة وعن الاختفاء بعد أن دبرت مكيدة يُعرف فيها أني وقعت في ساحة القتال شهيد جهادي باتفاق سابق بين دي فيرفوكون وبين الأعداء ضدي. أجل إني لم أترك من الدهاء والمكر بابا إلا طرقته شفاء لغليلي وانتقاما لنفسي من مزاحم كان أكبر حجر عثرة في سبيل مطامعي وعدو لم تغمض له عين في مراقبة حركاتي وتتبع خطواتي حتى سد عليّ مسالك كنت أرجي من ورائها الغنائم والجاه والشهرة. ولم يعد لي مفر من وجهه إلا الاتفاق مع أعدائي فاتفقت سرا مع سيد هذه البلاد على التسليم وسلمت، ولكن بطريقة لا يشك معها بحقيقة فعلتي بل بالعكس يظنني الجميع أني قضيت شهيد جهادي بمكيدة دبرها الكونت دي فيرفوكون ضدي. فإني بعد الكمين الذي اتفقت مع الأعداء على نصبه وقد بادت فيه رجالي انضممت أنا إلى الأعداء وألبست ثيابي وخوذتي أحد القتلى وشوهت وجهه حتى لا تُعرف حقيقته وجعلت في جيبه ورقة مقلد فيها توقيع خصمي.. وهكذا بحجر واحد أصبت هدفين.. العز والجاه والسعادة في هذه الديار فضلا عن اسم معطر بين الصليبيين والعذاب والاضطهاد لعدوي فضلا عن الاحتقار الذي يحوطه..

هـذه حادثتـي وقـد حاولـت نسـيانها، ولكـن هـذا الولـد جـاء يعيـد ذكراهـا عـلى خاطـري ويزيـد في قلبـي لهيـب الانتقـام، فألحـق الآن بالوالـد وأذيقـه شر العـذاب... أجـل يـا دي فيفوكـون سـترى أن انتقـام سـيجوفروا لا يقـف عنـد حـد مهانتـك أنـت فقـط بـل سـيلحق أولادك وجميـع مـن يمتـون إليـك بـأي جيـل كان.. وكل آتٍ قريـب...

ينزل الستار

الفصل الرَّابع

يمثّل المسرح سجنا في قصر الأمير فريد

•••

المشهد الأول

راعول في سجنه مكتوف اليدين

أبعد تلك الآمال الواسعة خيبة وفشل، وبعد ذلك السير الحثيث للوصول إلى غايتي يأس وضياع أمل .. وهل إلى هذا السجن المظلم كانت وجهتي في ركوب البحر وفي المجيء إلى هذه الديار النائية حيث لا صديق يرنو إليّ بعين صداقته ولا حبيب يعطف عليّ ليفرج همي ويزيل كربتي؟ لا لا للجهاد، ولا يكون الجهاد وسط السجون والأبواب موصدة.. ولم أركب البحر إلا للسعي وراء الشرف أسترجعه بعد فقدانه.. ولكني لم أكد أبدأ بمسعاي ولم أكد أطأ الأرض التي أملت فيها استرجاع شرفي حتى فاجأتني هذه النكبة، وفتت في ساعدي، وغلت يدي، وأبعدت عن قلبي رجاء الوصول إلى ما أملت، وإلى معرفة سر والدي الذي يتقلّب على أحر من الجمر، ويتحمل عذاب السجون هو أيضا انتظارا لرحمة الله.. أبتاه.. وما أعذب هذا الاسم يردده الابن في غربته ويتمثل صاحبه في مخيلته.. أبتاه وهل أعود إليك وأسمع من فيك كلمات الحنان الوالدي والعطف، وهل أعود وأحظى بسماعك تناديني وولداه.. أبتاه ألا تزال حيا ترزق في سجنك؟ وهل ترى أملك لا يزال كبيرا بشبلك تنتظره بفارغ صبر وتنتظر ما وعدتك به، أم أنك قلت على الدنيا وعلى شرف دي فيرفوكون السلام؟ أواه وهل تنفع

التأوهـات بعـد أن ضـاع أمـلي وخـاب مسـعاي؟

ولكـن... ولكـن لم هـذا اليـأس وهـل يخيّـب اللـه رجـاء المتكلـين عليـه.. إنـه تعـالى المسـؤول أن يقـودني إلى مـوارد الخـلاص.. فصـبرا إذا يـا راعـول ومـن يصـبر إلى النهايـة يخلـص..

المشهد الثاني

راعول. جاك

جاك: مولاي.. راعول

راعـول: ومـن مقلقـي في سـجني؟ ومـن الآتي ليعكـر صفـو الهـدوء وسـط ظلـمات هـذا المحبـس؟ وهـل مـن مشـفق عـليّ وأنـا وحيـد في هـذه الديـار بعيـد عـن أهـلي ومعـارفي، يعيـد كل أمـل في الحيـاة، ارسـف في قيـود ربمـا لا تفارقنـي إلى القـبر..

جاك: سـكن روعك يا راعول فالله رحيم لا ينسى الواضع رجاءه فيه.

راعـول: ومـن تكـون يـا هـذا؟ إن كلامـك لبلسـم ينـزل عـلى جـراح نفـسي فيخفـف مـن ألمهـا.. أمـلاك كريـم أنـت آتٍ لتعزيتـي، أم بـشر تحـرّك قلبـه إشـفاقا عـلى شـبابي؟ فاخـترق جـدران هـذا السـجن الكثيفـة ليخفـف بلـواي بعـذب كلامـك.. ارجـع إلى مقـرك يـا هـذا وخـف سـاكن القـصر ولا تتعـرض لغضبـه، فهـو منـزل أشـد الضربـات عـلى كل مقـترب إلي..

جـاك: باللـه أدر وجهـك وانظـر إليّ قليـلا.. أنـا جـاك رفيقـك بالجهـاد وقـد أتيـت إليـك لأقرئـك تحيـة الرفـاق وأشـدد عزيمتـك عـلى احتـمال التجربـة ريثـما يؤتينـا اللـه مـن لدنـه فرجـا قريبـا..

راعـول: حـاك.. وهـل حقيقـة مـا أرى وأسـمع؟!! أم أن عينـي تخدعـاني؟ وكيـف تمكّنـت مـن الوصـول إلي؟ وكيـف حـال الرفـاق الذيـن ذكرتهـم وهـل يذكـروني دائمـا؟

جـاك: الجميـع بخـير يعـدون السـاعات والدقائـق للوصـول إلى يـوم الحريـة المنشـود.. لم ينسـك أحـد يـا راعـول.. وكيـف ينسـون فيـك الرفيـق المخلـص والقائـد الأمـين؟ أنـت موضـوع حديثهـم في خلواتهـم ومشـدد عزائمهـم عـلى احتـمال أسرهـم بصـبر، وإن أملهـم لعظيـم أن لا يتأخـروا عـن الوصـول إليـك وعـن تخليصـك مـن قيـودك الثقيلـة.. منـذ ذلـك اليـوم الـذي فرقتنـا فيـه أيـدي الظلـم ونحـن في خدمـة القـصر بـين خـدم الأمـير فريـد نعمـل عـلى مرضاتـه ونقـوم بواجباتنـا قيامـا لا نـترك معـه ملامـة علينـا تمهيـدا لخطـة لا نـزال ندرسـها سـعيا وراء الخـلاص.

راعـول: شـكرا لـك أيهـا الصديـق الصـدوق وشـكرا لباقـي الرفـاق واللـه المسـؤول أن يجمـع شـملنا بعـد طـول الفـراق.

جـاك: فكرنـا كثـيرا في السـبيل التـي نسـلكها للوصـول إلى غايتنـا، وقـد أرسـل اللـه إلينـا كاهنـا آنسـنا منـه عطفـا وشـفقة علينـا فأوقفتـه عـلى سرنـا وسـألته الصـلاة إلى اللـه لأجلنـا لعـل الـرب يسـتجيب دعـاء ويأخـذ بناصرنـا.. وقـد طلـب إليّ أن أعهـد لـه سـبيل زيارتـك في سـجنك ولا أدري كيـف العـكل لإيصالـه إليـك فـإن العيـون راصـدو حولنـا والحـرس سـاهرة..

راعـول: لا تعـرّض نفسـك للخطـر يـا جـاك ولا تعـرض هـذا الشـيخ الجليـل لغضـب الأمـير.. فيكفينـي منـك ومـن الرفـاق المسـعى ومنـه الصـلاة وعـلى اللـه تدبـير الأمـور.

جـاك: لقـد شـدد هـذا الكاهـن عـلى أمـر زيارتـك ولا أجـد سـبيلا لتلبيـة طلبـه إلا بإغـراء خفـراء السـجن عـلى التسـليم معنـا بإدخالـه عليـك..

راعـول: وهـل تراهـم يقبلـون معـك؟.. كـن حـذرا يـا أخـي ولا تثـير الظنـون حولك.

جـاك: لا بـد مـن تلبيـة طلـب الكاهـن، وسـأكلم السـجان وأطمعـه بالمـال لعـل قلبـه يلـين أمـام الأصفـر الرنـان.. فوداعـا الآن وارجـع إلى سـجنك وكـن هـادئ البـال مطنئنـا.

راعـول: على الطائـر الميمون وعين الله ترعاك (يخرج جاك)

المشهد الثالث

راعول (وحده)

مـا تـرى يريـد الكاهـن منـي حتـى يشـدد في الوصـول إلي؟ وهـل ينجـح جـاك في مهمتـه مـع السـجان أم أنـه يفشـل ويكـون فشـله مثـيرا للشـبهات حولـه ومنـزلا غضـب الأمـير عليـه؟ أخـذ اللـه بيـده وهـا إني أراه آتيـا ومعـه السـجان فلأختـف داخـل سـجني ولأتركهـما وحدهـما يتـداولان.. (يختفـي راعـول داخـل سـجنه)

المشهد الرابع

جاك. السجان (يدخلان)

جاك: هلم إلي يا أخي واستمع مني كلمة أود أن أسرها إليك على شرط أن تعدني بكتمانها عن أي كان.

السجان: ماذا تريد؟

جاك: أريد أمرا بسيطا جدا يعود عليك بالأرباح.. ألست رب عائلة وأبا أولاد؟

السجان: نعم..

جاك: فلا أظنك إذا ترفض ما يُقدّم إليك مساعدة لأولادك ولبيتك..

السجان: وهل هو عطاء لوجه الله أن أنك تريد مني لقاء ذلك خدمة؟

جاك: خدمة بسيطة لك منها النفع وليس عليك من جرأتها ملامة ولا ضرر..

السجان: هات ما عندك.. قل فكلي آذان صاغية..

جاك: إن في هذا السجن الذي تحرسه شابا سجينا أليس كذلك؟

السجان: نعم وهو من الفرنج أعدائنا.. والأوامر المعطاة لي بشأنه شديدة جدا..

جاك: لا بأس.. هو شاب من الفرنج وهو مسيحي كما تعرف..

وللمسيحيين اعتقاد متين بكهنة الله يرون فيهم خيرا تعزية لمصابهم.. وفي جوار هذه الديار شيخ متعبد لله منفرد في منسكه يقضي أيامه بالصوم والصلاة.. ولا أظنك إلا لاحظته بعض المرار..

السجان: أكمل حديثك..

جاك: فهل ترى من بأس لو سألنا هذا الشيخ زيارة السجين؟

السجان: زيارته؟ ولماذا؟!

جاك: ليعظه ويسمعه من كلمات التعزية ما يقلل شكواه ويجعله يتحمل سجنه بصبر.. وهل من ضرر يلحقك من ذلك؟

السجان: لا ضرر البتة إنما أخاف العاقبة.

جاك: وما العاقبة التي تخشاها؟ وهل تظن أن هذا الشيخ يقدم على عمل يستنزل معه سخط سيد هذا القصر؟ خذ لك هذا المال فهو ينفعك في معيشتك وتربية أولادك وسهل طريق هذا الشيخ الجليل إلى السجين..

السجان (يأخذ المال وبعد تردد يضعه في جيبه ويقول): حسنا اذهب لمناداة الكاهن وأنا أتغيب قليلا عن هذا المكان ريثما تأتيان وتعودان.. ولكن إياك أن يراكما أحد فإن غضب الله ينزل على رأسك ورأسي..

جاك: كن مطمئنا (يخرج)

المشهد الخامس

الحارس (وحده)

وهـل مـن غبـاوة أشـد مـن غبـاوة هـذا المخلـوق؟!... أيـراني مجنونا حتـى أتركـه يقـوم بمـا يريـد وأخـون سـيدي؟ وكيـف أتـرك هـذه الفرصـة تمـر بي دون أن أتخذهـا وسـيلة لاسـتزادة عطـف مـولاي عـلي! لقـد ذهـب لاسـتدعاء الكاهـن.. فـلا بـأس.. ليـأت وإيـاه مطمئنـين وسـأتركهما يدخـلان ولكـن خروجهـما سـيكون صعبـا .. سـأذهب حـالا إلى الأمـير وأخـبره بواقعـة الحـال وآتي بـه لـيرى بـأم عينيـه خيانـة خدمـه مـن جهـة وشـديد إخـلاصي أنـا مـن جهـة أخـرى فأتمتـع بعـد ذلـك برضـاه وعطايـاه وأعيـش وقرينتـي وأولادي بحمـى الأمـير أهنـأ حيـاة وأرغـد عيـس.

(بعـد أن يسـير في المـسرح ذهابـا وإيابـا مـرات متكـررة.. ينظـر إلى خـارج المـسرح ويقـول)

هـا هما قد أتيـا فلأبتعد الآن وإلى الملتقى القريب.. (يخرج)

المشهد السادس

الكاهن. جاك (يدخلان)

جـاك: هـذا هـو المـكان يـا مـولاي وهـذا هـو السـجن الـذي تمكّنـت مـن إغـراء حارسـه لاخـتراق جدرانـه والوصـول إلى السـجين الـذي أظهـرت رغبتـك الشـديدة في الاجتـماع إليـه.. فصـبرا قليـلا لأناديـه.

(يتقدم من باب السـجن وينادي): راعول..

المشهد السابع

الكاهن. جاك. راعول (يدخل)

راعول (يظهر من داخل سـجنه): جاك هل نجحت في مهمتك؟

جـاك: نعـم وهـذا هـو رجـل اللـه آتٍ إليـك ليضـع بلسـم التعزيـة عـلى جـروح نفسـك..

راعـول: أهـلا بـك يـا مـولاي وشـكرا.. أنى لسـجين مثـلي غريـب أن يسـتحق زيارتـك المقدسـة (يتقـدم مـن الكاهـن ويقبـل يـده راكعـا) باركنـي يـا أبتـاه واسـأل اللـه أن يـرأف بي وبمـن يتقلـب عـلى جمـر الغضـا في انتظـاري..

الكاهـن: انهـض يـا راعـول ورب السـماوات يبـاركك ويمطـر عليـك مـن لدنـه نعـم الصـبر لاحتـمال مصائبـك وينيلـك مبتغـاك في هـذه الدنيـا والآخـرة.

راعـول (يقـف): لقـد أخـبرني صديقـي جـاك أنـك شـديد الرغبـة في زيـارتي

ولكني مع تقديري لعواطفك الأبوية قد خشيت عليك يا مولاي من ظلم الظالمين فحذرته شر العاقبة.. وإني أعود وأكرر خوفي يا مولاي.. فإن في اختراق جدران سجني غضب الأمير..

الكاهن: لا تخش بأسا يا ولدي فإن الله القائل: «كنت مسجونا فزرتموني» وقد أتيت إليك عملا بوصيته هو المسؤول أن يرسل ملائكته لحراستي ولرفع ظلم الظالمين عني.. خصوصا وقد شعرت من نفسي دافعا يدفعني إلى زيارتك منذ أن أخبرت بوجودك في هذه الديار.. فإن لاسم دي فيرفوكون حرمة كبيرة عندي..

راعول: دي فيرفوكون.. ومن أين تعرفهم يا مولاي؟.. يا الله فلست إذا وحيدا هنا ويوجد في هذه البقعة من الأرض من يعرفني ويرثي لحالي ويرنو إليّ بعين صداقة ومحبة وكيف عرفتهم يا مولاي؟

الكاهن: كان دي فيرفوكون أحد أبطال الحملة الصليبية الرابعة، وقد طارت شهرته وأضحى مفزعة أعدائه.. ومن لم يسمع بهذا الاسم بل ومن لم يذب شوقا للتمتع بمرأى تلك الطلعة البهية التي تعلها مسحة من هيبة الله وبطولة القديسين..

راعول (إلى نفسه): أبعد هذه الذكرى وهذه الخدمات الجليلات ذل وانكسار ومهانة؟.. أتسمع يا أبي.. وهل من العدل بشيء أن تبقى في سجنك تجر ذيول الاحتقار والذل ويرتفع غيرك في بحبوحة من رخاء العيش وهناك الحياة؟!.. لالا.. إن الله رحيم لن يتركك في سجنك فسيرسل إليّ من يأخذ بيدي لإتمام مهمتي وأعود إليك ظافرا رافعا راية الانتصار والشرف..

الكاهـن: لا يخيـب مـن يضـع اتكالـه عـلى اللـه. تأكـد يـا راعـول أن المحـن إن هـي إلا زيـوت توضـع في مصابيـح الصالحـين وخائفـي اللـه فتـزداد بهـا أنـوار فضائلهـم إشـعاعا.

راعـول: إن كلامـك لبلسـم ينـزل عـلى جـراح قلبـي فيخفـف آلامهـا. فصـلّ إذا لأجـلي وتـضرّع إلى اللـه أن يرحـم راعـول ووالـده برحمتـه..

(تُسـمع حركة في الخارج فيلتفت جاك ويقول)

جـاك: لقـد هلكنـا! هـذا هـو الأمـير فريـد آتٍ ومعـه السـجان.. يـا للخيانـة العظمـى!

المشهد الثامن

الأشخاص ذاتهم. الأمير فريد

الأمير فريد: ماذا أرى؟ أخيانة وسط بيتي وفي عقر قصري؟!! وما الذي أتى بك أيها الشيخ الجليل؟ وهل تدري أن في الدخول إلى بيتي دون إذني الموت الزؤام؟!!

(إلى جاك): وأنت أيها الخائن.. ستنال جزاء خيانتك أنت وهذا السجين.

(يرتفع سيفه ويهم بقتل جاك فيصرخ الكاهن قائلا):

الكاهن (بصوت كله هيبة ووقار): أنت الخائن! أنت المارق.. رجوعا إلى الوراء ولا تمد يدك إلى هذين البريئين يا سيجوفروا الكافر!

الأمير فريد (يقف مبهوتا وينظر إلى الكاهن): ومن تكون يا هذا حتى تصمني بإهانة لا تمحوها دماؤك ولا شيبتك الجليلة؟!

الكاهن: أجل أنت سيجوفروا الكافر بنعم أسياده والمارق عن الدين والوطنية.. فأرجع سيفك إلى غمده وسكن ما بك من الجأش فلقد أتت ساعة الحساب.

الأمير فريد: أفصح.. فإني لا أفهم لكلامك معنى!

الكاهن: لا بل تفهم جيدا وتعرف أن اسم الأمير فريد إن هو إلا اسم مستعار أردت إخفاء جرائمك تحته. ولكن عين الله لا تنام وها أن الساعة التي طالما انتظرتها أنا وتحاشيتها أنت قد دقت لإعلان مخازيك أيها الخائن سيجوفروا..

راعـول (بعـد الذهـول برهـة يقـول): سـيجوفروا! إني أعـرف هـذا الاسـم فهـو عـدو والـدي.. هـو الرجـل الـذي اتهـم والـدي بخيانتـه وحوكـم وسُـجن لأجلـه.. بـشرى لـك يـا جيـل.. أيهـا الوالـد الحبيـب بـشرى لـك فـإن نـور الحقيقـة بـدأ بالسـطوع..

الكاهـن: جيـل دي فيرفوكـون هـو ذلـك الرجـل الـذي كنـت أنذرتـه بغضـب اللـه ولعلـه قـد تـاب عـما بـدا منـه؟!

راعـول: نعـم يـا مـولاي.. لقـد تـاب توبـة صادقـة وكفّـر عـن ذنوبـه وهـو لا يـزال في غياهـب سـجون فرنسـا يجـر عذابـات الاحتقـار منهـما بخيانـة سـيجوفروا وبإيقاعـه في كمـين اتفـق بـه مـع الأعـداء.. وليـس مـن العـدل أن يبقـى في عذابـه مـا دام هـذا الرجـل حيـا يُـرزق وهـو يرتـع مـع الأعـداء وبـين صفوفهـم!

سـيجوفروا (بعـد ذهـول طويـل وإطـراق إلى الأرض يقـول وقـد عـلا الاصفرار وجهـه): أجـل ليـس مـن العـدل أن يبقـى ذلـك الرجـل الشريـف الشـهم سـجينا لأجـلي وأنـا هنـا أسرح وأمـرح في بحبوحـة السـعادة والهنـاء.. أجـل أنـا هـو سـيجوفروا.. أنـا هـو الخائـن الـذي كفـر بنعـم ربـه.. أنـا هـو خصـم دي فيرفوكـون الـذي نصـب لـه الأشراك الكبـيرة لإهلاكـه وكان الـشرك الأخـير أشـد إيلامـا عـلى قلبـه... فهـل مـن رحمـة لي أيهـا الأب الجليـل؟؟

الكاهـن: لا رحمـة مـا لم تعلـن للمـلأ عملـك الفظيـع وتقـر بـأن سـيجوفروا لم يمـت بالكمـين الـذي اتهـم بـه دي فيرفوكـون وأن هـذا الكمـين لم يكـن إلا حيلـة نسـجت حبائلهـا خصيصـا للإيقـاع ببطـل نزيـه مخلـص لوطنـه ولقضيتـه ودينـه.. وأن مدبّـر هـذه الحيلـة هـو أنـت... أقـر بذنوبـك هـذه

للملأ واطلب إلى الله أن يرحمك فلا بد أنه سبحانه وتعالى يعاملك برحمته ورأفته.

سيجوفروا: إني رهين إشارتك يا مولاي.. فمُر تراني أطوع لك من بنانك.. ماذا تريد أن أعمل كفارة عن الذنب الذي اقترفته؟

راعول (على حدة): يا رب هل قرب الفرج؟ وهل أرى أبي خارجا من سجنه رافع الرأس ظافرا؟؟

الكاهن: أكتب صكا تُقر فيه بما مضى منك ووقع عليه بتوقيعك الذي يعرفه الجميع وأعطه لهذا الشاب ليحمله إلى الملك ويخلص به والده من السجن الذي زُجّ فيه لأجلك.

سيجوفروا: أفعل بطيبة خاطر.. وهل يتقبّل الله مني هذه الكفارة؟؟

الكاهن: لا تقنط من رحمة الله فهو رحيم يعامل التائبين برحمته.

سيجوفروا: ها أنا ذاهب لكتابة الصك فانتظروني قليلا.. (يخرج)

المشهد التاسع

الكاهن. راعول. جاك

راعـول: شـكرا لـك يـا مـولاي وألـف شـكر.. ولا أدري كيـف أكافئـك عـلى مـا قمـت بـه أمامـي وأمـام شرف أسرة دي فيرفوكـون مـن الخدمـة التـي نجلهـا بأبهـى آيـات الشـكر.. وليـس لي إلا أن أسـأل اللـه أن يجازيـك عنـا جـزاء الأبـرار الصالحـين..

الكاهـن: إني خـادم اللـه وقـد قمـت بواجـب انتدبـت لأجلـه. فـإذا ذهبـت إلى والـدك قـل لـه أن كاهـن تلـك القريـة التـي أمـرت يومـا بحرقهـا وأنـت ثمـل بخمـرة الانتصـار.. ذلـك الـذي اسـتنزل لعنـات اللـه عليـك هـو نفسـه يقبـل كفارتـك باسـم إلهـه القـدوس، وهـو نفسـه عمـل بقـوة اللـه عـلى خلاصـه مـن سـجنك وعـلى إعـادة الـشرف الـذي قـال لـك أنـت سـتصاب بفقـده..

المشهد العاشر

ذاتهم. سيجوفروا (يدخل)

سيجوفروا (يقدّم إلى الكاهن ورقة ويقول): هذا هو الصك الذي تطلب يا مولاي. أقرأه وسلني ما تريد زيادة عليه فإني مستعد لأن أعوض عما بدر مني..

(الكاهن يأخذ الورقة ويقرأها على حدة ويكمل سيجوفروا مخاطبا راعول)

وأما أنت يا راعول فعفوا عما أتيته نحوك ونحو والدك الذي أحترمه وأحترم فيه مبدأه وإخلاصه بالرغم من العداوة التي كانت متمكنة في قلبي ضده.. وما هو إلا شيطان الغرور والطمع الذي نفخ في رأسي هذه الجريمة فاقترفتها وأضحيت خائنا أمام الله وأمامه وكافرا بنعم مليكي المحبوب ورفاقي في الجهاد.. قل لأبيك أن سيجوفروا تائب عن ذنوبه وهو يتطلب منك رحمة وعفوا لعل الله يتقبل دعاءه فينيلني الرحمة التي أريد فأقضي ما بقي من عمري بخير وسلام.

راعول: إن ما مر بنا كان إلا محكا لإيمان والدي، وإني باسمه في سجنه وبالأصالة عن نفسي أطلب إلى الله أن يعفو عنك يا سيجوفروا وأن يرحمك برحمته.

الكاهن (إلى راعول): خذ يا ولدي هذا الصك فهو خير ذخر لك أمام مليكك وعظماء فرنسا وخير كفيل بتخليص والدك من سجنه وبإرجاع شرف دي فيرفوكون إلى سابق عزه، وها إن شهادتي عليه مصداقا لما تم.

راعـول (يأخـذ الصـك ويقبّـل يـد الكاهـن ثـم بعـد أن ينظـر إليـه يتهلـل وجهـه بـشرا ويقـول): الخـلاص. الحريـة. الـشرف.. بـشراك الآن يـا والـدي فلقـد دنـت سـاعة الخـلاص وهـا إن وحيـدك يعـود إليـك كـما وعدتـك رافـع الـرأس حامـلا لـك الخـلاص والحريـة والـشرف.

فـإلى فرنسـا أيهـا الرفـاق.. إلى فرنسـا.. لقـد تمـت مهمتنـا ولم يبـق لنـا إلا زيـارة القـبر المقـدس والعـودة مرفوعـي الـرؤوس ورايـات النـصر خافقـة فوقهـا.. فلقـد أتينـا نجاهـد في سـبيل الـشرف وهـا إن الـشرف الـذي جاهدنـا لأجلـه قـد نلنـاه..

فـإلى بلادنا العزيزة.. إلى وطننا المحبوب..

ينزل الستار

الفصل الخامس

يرفع الستار عن المنظر ذاته الذي رُفع عنه في الفصل الثاني أي سجن وداخله جيل

•••

المشهد الأول

جيل. السجان

جيل (من داخل سجنه): مضت الأيام والشهور الطوال بل وطُويت السنون الكثيرة وأنا في هذا السجن أليف الحزن والسهاد. أندب حظي وأستمطر الرحمات عليّ وأناجي ولدي راعول الذي ابتعد عن هذه الديار بعد أن حط فيها قدره وذهب يضرب في بلاد الله الواسعة سعيا وراء شرف أضاعه الوالد فكان للولد الحظ الأوفر من المهانة والاحتقار.. إيه يا راعول أيها الولد البار الحبيب.. يا مهجة كبدي وبهجة أيامي وتعزية شيخوختي... أين أنت اليوم وفي أي الديار رماك هذا الدهر الظالم الخؤون وهل لا تزال تذكر والدك وتسعى سعيك لخلاصه وخلاص اسم أسرتك من الهوان، أن القدر قد خانك فرضخت لظالم أحكامه وناصبك العداء؟ فنفد زيت الرجاء من مصباح عزيمتك وهمتك وسكت واستسلمت يائسا قانتا؟ أي ربي.. هل من خبر قريب من ولدي يفرج كربتي وينعش فؤادي الكسير؟ وهل من اجتماع إليه قبل أن أموت؟ وهل من قبلة حارة أطبعها على محياه الصبوح فتكون خير تذكار له من أبيه وخير مشدد لعزيمته على اجتماع مصائب حياة الدنيا الغرور..

السجان: لو أن ابنك لا يزال في قيد الحياة لما كنت عدمت خبرا منه.. وها قد مضت الأيام وأخباره منقطعة عنك..

جيل: لا تزد هما على همومي يا هذا وارتكني وحدي أندب حظي وأنادي روح ولدي الحبيب حيا أم ميتا.. وما الذي يضيرك من كلامي؟!

السجان: إني أرثي لحالتك التعيسة وأخشى إذا ما أثقلت الهموم عليك قتلتك!

جيل: مرحبا بالمنون خلاصا من عذاباتي وهمومي... وتأكد يا هذا أن ذكر ولدي هو الذي يجيب إليّ الحياة نوعا وهو الذي يشدد عزائمي على احتمال مصائبي بصبر.. وهل من اسم أعذب من اسم الابن يردد على فم الوالد الحنون؟ ألست رب أسرة؟ أليس لك أولاد؟ ألا تشعر بعاطفة الشوق تلهب حشاك فيها لو فارقتهم أو ابتعدوا عنك يوما واحدا؟ فكيف بي أنا الوالد المنكود الحظ وقد مضت عليّ أيام وأيام لم أضم فيها إلى صدري ولدي الذي ربيته بدموع العين.. أتستكثر عليّ بعد هذا ترديد ذكراه؟! ألا بالله أتركني في ظلمات سجني أبكي وأنوح وأردد ذكرى من أحببت..

المشهد الثاني

جيل. السجان حاجب الملك (يدخل)

الحاجب: إن مولاي الملك يرد زيارة هذا السجن لتفقد حالة السجين فاستعد يا هذا لملاقاة جلالته.

جيل: على الرحب والسعة.. أهلا وسهلا.. وتراني بانتظار تشريف جلالته..

السجان (على حدة): لأمر ما زيارة هذا السجين؟ وهل من جديد؟

المشهد الثالث

جيل (وحده)

جيل: جلالة الملك يزورني.. وما الداعي يا ترى إلى تنازل جلالته لزيارة خائن أثيم مثلي؟؟ وهل من جديد يريد جلالته موافاتي به أم أن أمرا ذا بال دفعه إلى هذه الزيارة التي لم يسبق أن قام بمثلها لهذا السجن؟ وعلى كل فهي فرصة تسنح أعود فيها إلى تمتيع الطرف بمحياه الصبوح فلقد أحببته كثيرا وأخلصت له الخدمة ولا أزال أحبه مهما نزل بي من المصائب التي كنت أنا الجانب بها على نفسي.. وراعول أتراه يدري أين هو اليوم وما جرى له بعد تلك السهام القتالة التي كسرت قلبه؟ سأسأله لعل عنده ما يخفف بلواي..

المشهد الرابع

جيل. الملك (يدخل)

الحاجـب: جلالة مولانا الملك.

الملـك: لقـد جئتـك يـا جيـل أتفقـد حالتـك وأقـف بنفـسي عـلى مـا أنـت عليـه في سـجنك..

جيـل: لا أسـتحق يـا مـولاي مثـل هـذه العنايـة.. وإني لمجـرم أثيـم أن يسـتحق مثـل هـذا العطـف مـن مليكـه المحبـوب..

الملـك: لـك امتيـاز خـاص يـا جيـل، فـإني بالرغـم مـما ألصـق بـك وبالرغـم مـن سـجنك لا أزال أحـترم فيـك تعاليـك في سـبيل بـلادك وإخلاصـك لمليـكك ودينـك.. ولذلـك فـإني كنـت دائمـا أوصي بـك خـيرا.. وكثـيرا مـا كنـت أراقـب الفـص لأهـوّن عليـك احتـمال عذاباتـك حتـى يـؤتي اللـه أمـرا كان مفعـولا..

جيـل: إني أشـكر لمـولاي هـذه التعطّفـات وأرجـو مـن اللـه أن يمـد في عمـرك ويبقيـك عـلى رأس شـعبك المليـك المفـدى.. هـذا وهـل يسـمح لي مـولاي أن أرفـع إليـه بـصري وأن أسـأله أمـرا صغـيرا؟

الملك: سل يا جيل.

جيـل: هـل لدى مولاي الملك أخبارٌ عن ولدي راعول؟

الملـك: لقـد أخـذت أسرّ الأخبـار عـن ابنـك وأدعاهـا للافتخـار، فلقـد كان في البـلاد المقدسـة عنـوان الشـهامة والشـجاعة ومثـالا حيـا لوالـده البطـل المعـروف.

جيـل: ولـدي راعـول! وهـل صحيـح مـا تقـول أم أنهـا كلـمات تريـد تهدئـة خاطـري بهـا؟! أصحيـح أن راعـول ظهـر في الحـروب الصليبيـة؟ وهـل غسـل جريمـة أبيـه وأعـاد لنفسـه عـزا أفقـده إيـاه أبـوه؟!

الملـك: لقـد فعـل أكـثر مـما تظـن يـا جيـل.. لقـد بـرّ بقسـمه لـك وذهـب إلى الأراضي المقدسـة مفتشـا عـن سر شـئت أنـت أن تخفيـه علينـا.. ولكـن الشـبل لم يقعـد عـن اكتشـافه فرجـع إلينـا حامـلا بشـائر الخـلاص إليـك..

جيـل: لا أكاد أصـدق مـا أسـمع! السرّ؟؟ راعـول! ربي شـدد عزائمـي عـلى احتـمال مـا يُلقـى عـلى مسـمعي.. وراعـول أيـن هـو الآن؟ باللـه يـا مليـكي المحبـوب أصدقنـي الخـبر.. فهـل لا يـزال حيـا يُـرزق؟

الملـك: سرّ اليـوم وابتهـج يـا جيـل فراعـول حـيّ يُـرزق وهـو بطـل مـن أبطـال فرنسـا المغاويـر.. فاسـتعد لملاقاتـه الآن وضمـه إلى صـدرك.. فإنـه مدعـاة افتخـار لـك ولبـلاده..

(هنـا يدخل راعول ورفاقه الثلاثة)

المشهد الخامس

الملـك. جيل. راعول. نيفار. أدمون. جاك

راعـول (يرتمـي على صدر والده قائلا): أبت الحنون..

جيـل (يفتح يديه ويضـم ابنه إلى صدره ويقول): ولدي الحبيب..

(يبقيـان هنيهـة متعانقـين والملـك ينظـر إليهـما وعلائـم الحنـان باديـة عـلى محيـاه)

جيـل: راعـول ولـدي.. لقـد جمعتنـا الأيـام بعـد طـول الفـراق فحـق لنـا رفـع آيـات الحمـد للـه سـبحانه والشـكر لمليكنـا المفـدى (يتقـدم وراعـول مـن الملـك ويركعـان أمامـه ويقـول جيـل): مـولاي إن أكـبر عاطفـة الشـكر الـذي يشـعر بهـا أب يلهبـه الشـوق لملاقـاة ولـد حبيـب طـال غيابـه عـن عينيـه هـي موجهـة لـك يـا مـولاي فاقبلهـا منـي فهـي كل مـا أملـك واسـمح لي أن أقبـل يديـك قبلـة هـي لسـان حـال قلبـي الخافـق..

راعـول (راكعـا إلى جانـب والـده): وأنـا يـا مـولاي.. اسـمح لي أن أضـم صـوتي إلى صـوت والـدي وتقبّـل منـي حميـم شـكري وتجديـد ميثـاق الإخـلاص لـك والتعلـق بسـدتك يـا صاحـب الجلالـة..

الملـك: قفـا يـا أخلـص أفـراد شـعبي ولا ضـير عليكـما بعـد الآن (يقفـان) أمـا أنـت يـا جيـل فهـا قـد اجتمعـت إلى مـن بكيتـه كثيـرا، ولكنـك لم تـدرِ بعـد مآتيـه ولم تقـف عـلى مـا قـام بـه مـن الأعـمال الباهـرات اسـترجاعا لـشرف دي فيرفوكـون.. فاسـمع لأقـص ذلـك عليـك بوجيـز العبـارة: لقـد قصـد إلى الديـار المقدسـة مـع هـؤلاء الرفقـة الثلاثـة للجهـاد وللسـعي وراء إزاحـة

الظلـمات التـي حاطـت تهمتـك وسـجنك.. ذهـب وبإيمـان متـين تابـع جهـاده.. وقـد سُـجن هنـاك وأهـين واحتمـل العذابـات في سـبيل مبدئـه يشـدد عزيمتـه رفاقـه حتـى توصـل إلى سـيجوفروا نفسـه الـذي رميـت أنـت بخيانتـه.. فـإن سـيجوفروا هـو الخائـن المـارق وقـد أقـر بخيانتـه في هـذا الصـك الـذي حملـه إليّ ابنـك فاقـرأه تجـد فيـه تفاصيـل الحادثـة.

جيـل (يركـع ويأخـذ الصـك مـن الملـك ويقبـل يديـه ويبـدأ بقراءتـه إلى نفسـه)

الملـك (إلى راعـول): وأنـت يـا راعـول.. لقـد كنـت أبـر الأولاد لأحسـن الآبـاء فـصرت أهـلا لأعظـم الجـزاء مكافـأة لـك عـلى جهـادك. وإني ابتـداء مـن هـذه السـاعة أرد إلى جيـل دي فيرفوكـون أملاكـه وحقوقـه المدنيـة وأرجعـه إلى أعـلى مرتبـة مـن مراتـب الـشرف فيكـون بـين أقرانـه رافـع الـرأس عـالي المنـار.. وأسـميك أنـت فـارس الملـك وغـدا في حفلـة عامـة وبحضـور عظـماء الدولـة أعلـن عـلى المـلأ مآتيـك وأعمالـك..

راعـول (يركـع ويقبـل يـد الملـك ويقـول): لسـت مسـتحقا يـا مـولاي لـكل هـذه الإنعامـات وكفـاني فخـرا أن أكـون في حمـى جلالـة مليـكي المحبـوب.. أمـا الأمـلاك والـشرف فـإني أقبلهـا بـكل شـكر وفخـر، أمـا فـارس الملـك فـلا أزال صغـيرا لـه..

الملـك: لا يكـون الكـبر بكـبر السـن كلا، بـل بعظيـم الأعـمال، فـإن أعمالـك ليعجـز دونهـا أعظـم الرجـال.

الجميـع: عاش الملك. ليحيَ الملك..

الملـك (إلى الرفـاق الثلاثـة): وأنتـم يا رفـاق راعـول في الجهاد.. لقـد جاهدتهم الجهـاد الحسـن وظهرتـم الأمنـاء المخلصـين لمبدئكـم ولوطنكـم فاسـتحققتم الجـزاء.. فـإني أنعـم عليكـم بالرتـب العسـكرية العاليـة وبالعطايـا التـي تسـاعدكم عـلى قضـاء أيامكـم مـع ذويكـم براحـة وطمأنينـة، فاحمـدوا اللـه عـلى آلائـه وثابـروا عـلى مبادئكـم القويمـة وأدعـوا لمليككـم ولمملكتـه بالعـز، والازدهـار، ولجيوشـه بالغلبـة والانتصـار.

الجميـع: عاش الملك.. ليحيى الملك..

ينزل الستار

تمت الرواية

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة

مشروع النشر الرقمي